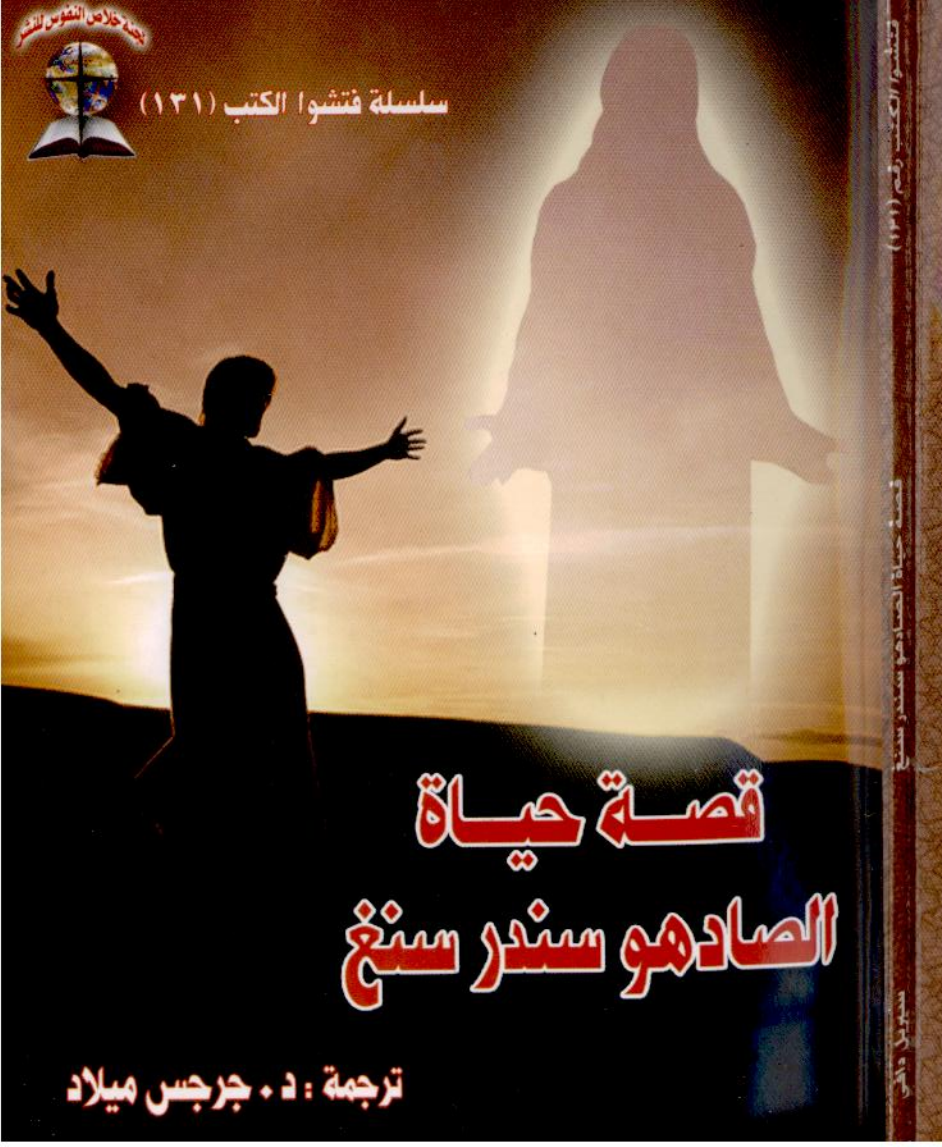


هذا الكتاب

قصة حياة الشاب الهندى الذى أصبح قديساً مسيحياً شهيراً.

منذ أن كان طفلاً تحمله أمه وتصعد به إلى ذلك الرجل التقى الذى كان يعيش وسط الأشجار..

كان يبحث عن السلام، لكنه لم يحصل على شيء، وقاسى فترة من اليأس، وفكر أن يضع حداً لحياته!..

أتى يسوع إلى غرفته وتحدث إليه...

لم يكن العالم يعنى شيئاً بالنسبة له، كما كان يعيش في روحانية داخلية عجيبة، وكان له الإحساس الدائم بحضور الله.

وأشياء أخرى كثيرة، عجيبة ومذهلة، في خدماته!

قصة حياة
الصادهو سندر سنغ

بقلم

سريل دافى

تعريب

دكتور جرجس ميلاد

الطبعة الثالثة

٢٠٠٨

بسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد آمين

اسم الكتاب : **قصة حياة الصادهو سندر سنغ**

اسم المؤلف : **سيريل دافى**

اسم المترجم : **دكتور جرجس ميلاد**

الطبعة : **الثالثة / ٢٠٠٨**

التصميمات والإخراج الفنى والطباعة : **مطبعة الخلاص**

الناشر : **لجنة خلاص النفوس للنشر** ١٢ ش قطة شبرا مصر

مكتبة الخلاص ١٣ ش قطة شبرا مصر ت ٢٥٧٧٦١٠٥

ت : ٢٥٧١٤٢٠٠ _ ٢٥٧٧٢٥٢٦ _ فاكس ٢٥٧٧٧٧٨٧

بريد إلكترونى : LGNT_ELNSHR@YAHOO.COM

كلمة للمعرب

«انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم»
(عب ١٣ :٧)

إن قصة حياة هذا الشاب الهندى جديرة بالدراسة والتأمل. وليس ثمة شك أنها ستكون سبب بركة لكل مَنْ يقرأها. كما كانت حياة بطل القصة نفسه، سبب بركة لجميع مواطنيه في شبه الجزيرة الهندية. وقد امتد تأثيره أيضاً إلى بلاد الغرب.

كان اسمه «سندر»، وأبوه كان يُدعى «شير سنغ». أما ديانته فكانت «السيخة». وكان رجل الدين السيخى، يُلقب بـ «صادهو». وهى رتبة دينية في الدراسة السيخية التى أسسها رجل هندوسى. وهى تعارض الوثنية والعزل الطبقى.

وبعد أن صار «سندر» مسيحياً. فضّل أن يكون مظهره الخارجى مثل «الصادهو» لكى يكون مقبولاً لدى أهل بلده ومألوفاً لهم. ولكنه كان «صادهو» من طراز آخر.

كان هدفه في الحياة هو خدمة سيده، والسير في أثر خطواته، فكان بسيط الملبس، بهى الطلعة، حاد النبرات، لا يحمل مالاً أو زاداً في الطريق، ويقضى معظم أوقاته في التأمل والصلاة.

وكانت له قوة تحمل في جسده، بصورة عجيبة، فتحمل أقصى درجات البرودة، كما تحمل آلاماً وتعذيباً مرات كثيرة.

وكان يتطلع باستمرار إلى الكنيسة المتحدة الوطنية في الهند، ولذلك كان يقدم المسيحية في قالب وطنى مقبول من الهنود، وكان يسعى لتوحيد الكنيسة.

أما عن آثار هذا الرجل، فقد ظهرت بعد وفاته، أكثر مما كانت في حياته.

ولا تزال، سيرته العطرة، تفوح في الشرق والغرب.

وشكراً لله لأنه «هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد». يستطيع أن يستخدم أية آنية لمجده. آمين.

المعرب

مقدمة

إن الحصول على معلومات عن حياة الصادهو سندر سنغ، ليس سهلاً، وذلك لأنه لم يكتب إلا القليل، رغم أنه ترك أثراً لا يُمحى، وقد كتب كتباً قليلة عن حياته الروحية، لكنه لم يحتفظ لنفسه بمذكرات عن يومياته أو تجوالاته.

ويوجد كتابان، يعتبران مرجعين لقصة حياة الصادهو، أحدهما تم نشره في حياته وبإذن منه، وعنوانه «الصادهو المدعو من الله»، والثانى «ذكريات شخصية»، وقد كتبه صديق شخصى متقرب جداً للصادهو، وكان يُدعى «أندروز».

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه يوجد كتابان آخران، أحدهما بعنوان «الصادهو»، والثانى بعنوان «بشارة الصادهو سندر سنغ»، وهما يلقيان الضوء على اختباراته الدينية وتعاليمه.

أما عن كتابات الصادهو نفسه، فهى عبارة عن تأملات روحية، وأشهرها «رؤيا العالم الروحى»، «الدين والحقيقة»، «الحياة الروحية»، «البحث عن الحقيقة».

(١)

الصادهو في الأدغال

(١٨٩٦)

مسـح «الصادهـو» عرقـه المتصبـب علـى جبينه، وتعجـب كيـف أن أمـه لا تكترث بحـرارة الجـو، ثم لف عمامتـه البيضاء حول فمـه وأنفه، حتى لا يستنشـق الغبـار الصاعد من خلف صندل أمه، وهما في طريقهما إلى سهل البنجاب.

لقـد كان الجو حاراً في البيوت، في قرية «رامبر» حيث كان يعيش سـندر، أما الآن في جو الصحراء المكشـوف، فإن الشـمس كانت تحرق جلد الولد، وكانت السـماء من فوقهما زرقاء اللون ولكنها رمادية عند الأفق.

أما السـهل فلم يكن يعترضه سـوى الأشجار حول

الآبـار. ولم تكـن تلك الرحلة هى الأولى مـن نوعها، فإنه منـذ أن كان طفلاً كانت أمه تحمله على فخذها وتصعد مرة كل أسبوعين، إلى ذلك الرجل التقى الذى كان يعيش وسط الأشجار.

بيد أن رحلة اليـوم كانت تختلف، وقد بدأ جلده يتأثر من الحـرارة، ثم من البـرودة المفاجئة تحت ظل الأشـجار. وكان ذلـك اليوم هو يوم عيد ميلاده السـابع. وكان عليه أن يتلـو «الجيتا» ـ الصلاة الخاصـة بديانة أمه ـ أمام ذلك الرجل التقى.

لم يكن «الجيتا» هو كتابه المقدس، لأنه كان «سيخياً». وكان لهم كتابهـم الخاص، الذى كُتب منذ أربعمائة عام في معابدهم.

كان «الجيتـا» كتاباً هندوسـياً، منتشـراً فـي الهند. وكانـت أمه تؤمن أن الله قد تكلـم بطرق مختلفة، وفي عقائد كثيرة، وقد نقلت هذا التعليم إلى ابنها «سندر».

وعندما تعلم الولد نطق الكلمات استطاع أن يحفظ الصلوات الخاصة بشعبه عن ظهر قلب. ثم بدأت تعلمه فصولاً طويلة من «الجيتا». ورغم ما كان بها من أسماء غير مألوفة وأشعار. وتعاليم لاهوتية لم يفهمها جيداً. إلا أنه أحبها.

ولما صعدا. نظر سندر إلى الرجل التقى «الصادهو». ورغم أن هذا الرجل عاش في الغابات لمدة عشرين عاماً. إلا أن أحداً لم يعرف شيئاً عن تاريخه. سوى أنه قد ذهب إلى الغابة لكى يكون في خلوة مع الله!...

كان للبعض من هؤلاء الرجال «الصادهوات» منظر شاذ. كأن يشوه أحدهم جسده. بأن يضغط بقبضته حتى تنمو أظافره في راحة اليد. أو يرفض استعمال ذراعه اليمنى. حتى تضمر من عدم الاستعمال. وعلى العموم. فقد كانوا قذرين. وكان شعرهم طويلاً. والقشور تكسو جلودهم.

بيد أن ذلك الرجل التقى. كان يختلف عنهم. فكان جسده نظيفاً. وعيناه براقتين. وثوبه الأصفر ـ وهو اللون الذى يرتديه كل صادهو ـ نظيفاً وإن كان مهلهلاً. كما كان يتحدث بسهولة مع كل الذين يصعدون إليه.

وقدمت الأم ابنها سندر إلى الرجل. وتحدثا معاً. وابتسم الرجل للطفل. وسأله بعض الأسئلة. وكان مسروراً من إجابات الطفل. وعندئذ طلب منه أن يتلو ما يعرفه من «الجيتا». بينما ظل الصادهو صامتاً ومستمعاً. ثم رفع يده وقال: «لقد أحسنت أيها الولد». وهنا أحس الطفل بأن جسده ينتشى من الفرح بسبب هذا المديح غير المتوقع. ثم عاد الصوت العجوز يقول: «لكنك كنت متكبراً. والكبرياء هى عدونا الميت. وعليك أن تتعلم الجيتا. وتتعلم أيضاً التواضع. الذى هو الطريق المؤدى إلى الله».

فعاد الولد يطرق الرأس إلى أسفل. فقد كان الرجل محقاً. ثم أنصت إلى قوله: «يا ولدى. ما هو الطريق الذى

تعلمنا إياه الجيتا حتى نرضى الله؟». فأجاب سندر: «طريق ارضاء الله هو حفظ كل وصية، وكل تقليد، تسلمناه من آبائنا...». ولكن الرجل عاد يسأله: «ألا يوجد طريق آخر؟». فأجاب: «نعم! إنه طريق التأمل، وإنكار الذات، طريق الصادهو، أى أن يقطع الإنسان صلته بالعالم، ولا يفكر إلا في الله».

عندئذ ظهرت علامات السرور على الرجل، وابتسم في وجه الأم، وقال لها: «إن الولد يتكلم حسناً، ومَنْ يدرى، فربما يصبح هو نفسه، «صادهو» في يوم من الأيام!».

وفي طريق العودة كانت هذه الكلمات ترن في أذنى الصبى، حتى أنه لم يعد يهتم بحرارة الجو التى كانت أشد من ذى قبل.

وفي المنزل، كان الأب، «شير سنغ»، رجلاً طويل القامة ذا لحية سوداء كثيفة، تعود أن يطيعه الآخرون، إذ كان يحمل لقب «سردار» وهو لقب يُعطى للزعيم أو القائد الهندى.

وإن كان جميع الرجال في ديانته «السيخية» يتساوون في المرتبة الروحية، إلا أنه كان «سرداراً» وكان يمتلك أرضاً، ورئيساً لولاية. أما أقاربه فكانوا في خدمة «المهراجا»، وكانوا مثله أصحاب أرض وثروة.

لم يكن «شير سنغ» معارضاً للدين بل كان باعتباره سيخياً مخلصاً، كان فخوراً بزوجته القديسة أم سندر، والتى كانوا يعتبرونها من «الباهاتا». لكن الذى كان يقلقه، هو أن الأم تريد أن تجعل من ابنها قديساً قبل الأوان. فكان الولد يقوم مبكراً مثل أمه، ويتلو الصلوات بجوارها، ولم يكن يسمح له ولو بكوب واحد من اللبن، قبل انتهاء كل الصلوات، ولذلك قال الأب: «يوجد وقت كاف للصلاة. اذهب الآن والعب مع غيرك من الأولاد».

وحيث أن الولد لم يتعود على عصيان أوامر والده، فقد ذهب ليلعب مع الأولاد خارج المعبد. لكنه سرعان ما

ترك اللعب. وعاد إلى المعبد لينصت إلى الكاهن وهو يقرأ في الكتب الدينية.

أما السيخيون. فقد كانوا جنوداً في القرن الثامن عشر. عندما اشتد عليهم الاضطهاد. فقام أحد قادتهم واهتم بتنظيمهم وأعطى لكل رجل لقب «سيخى» ـ ومعناه الأسد ـ وأمرهم بالحرب حتى الموت. من أجل الحفاظ على جنسهم. كما أعطاهم علامات تميزهم. حتى لا يختفى أحدهم. ولا يتشابهون مع الآخرين. فكانوا يطلقون لحاهم. ويلبسون سواراً من الصلب في اليد. ويحملون القربان علامة الشجاعة.

أما عند سندر. فكان يعلم كل ذلك. وقد أحب جنسه بشدة. كما أعجب بقصص الاستشهاد التى اجتازها سابقوه. وكثيراً ما كان يتذكر ما قاله الرجل التقى عنه: «... ربما يصبح هو نفسه «صادهو».

لكن أصدقاء أبيه. عندما رأوا سندر يدلف كثيراً إلى المعبد. قالوا عنه: «إما أنه قديس. أو أحمق».

ولم يجد «شير سنغ» فائدة من التحدث عن الولد إلى أمه. فعاد يتحدث مع كاهنه بخصوصه. وقال له الكاهن: «لا أعلم ماذا نفعل بهذا الولد. فهو ليس مثل باقى الأولاد. ولابد أنه سوف يصبح رجلاً عظيماً. هذا إذا لم يخذلنا جميعاً ويصبه مس من الجنون!».

(٢)

إحراق الكتاب

(١٩٠٣)

كانت العائلة كلها متفقة على أن الولد ينمو بسرعة، وقد توقع أحد أفراد العائلة أنه سوف يكون محل فخر للأسرة، لكن أحدهم عاد يقول: «إنه لا يذهب كثيراً إلى المعبد هذه الأيام، ولا إلى الصادهو في الغابة!».

فرد عليه شير سنغ وقال: «ليس هذا بسبب عدم رغبته، ولكن بسبب مدرسته، ولا تظن أن ذلك سوف يؤثر على مدى تكريسه، وسوف تراه كل صباح مع أمه في حجرة الصلاة، قبل ذهابه إلى مدرسة الإرسالية».

فسأله: «وهل تظن أنه من الصالح أن يذهب الولد إلى مدرسة مسيحية؟». فرد الأب قائلاً: «لا تخف أبداً، فإن سندر سيخى، ويفتخر بذلك، ولن يجعلوه مسيحياً».

فعاد يقول له: «إن المدرسين المسيحيين يأتون إليك في منزلك». فأجاب «نعم، لكن أمه من طائفة الباهاتا، وهي تبحث عن الحق حيثما تجده، وإن كنت لست ضليعاً في الأمور الدينية، إلا أني أتذكر كلمات ذلك القائد الديني الذي قال إن الله يعلن نفسه بطرق كثيرة، كما يوجد الكثير من الناس ومن الكتب التي تتحدث عنه...».

فقاطعه الرجل وقال: «حتى ذلك الكتاب المسيحي الذي يدرسونه في تلك المدرسة المسيحية؟!». فأجابه قائلاً: «ربما، وأنا لم أقرأه، لكني أكتفي عموماً بسماع الكاهن وهو يقرأ في المعبد، كما أن سندر لم يقرأ منه سوى صفحة أو صفحتين، ثم مزقه، وألقاه بعيداً عنه، وأقسم ألا يعود إلى قراءته، أو سماع تعاليمه ثانية».

واستمر الرجل يسأل وقال: «إذاً لماذا يذهب إلى المدرسة المسيحية؟». فأجاب الأب: «لأن المدرسة الحكومية، كما تعلم، تبعد مسافة ثلاثة أميال، ولا يستطيع أن يسير هذه المسافة يومياً في الحر، فكان يجب البحث عن

مدرســة قريبــة. إذا كـان لابد لـه من التعليــم». ثم اتكأ الأب علــى عكازه، لأنه كان أعرج وعــاد يقول: «أنا أعترف بأنــي لا أحبذ الدين الكثير. الولد في الثانية عشــرة من عمره. لكنه على الأقل. يحب ذلك الإيمان الذى استشهد من أجله آباؤه. كما أنه يعلم الكتب الهندوســية عن ظهر قلب».

لقد كان شــير ســنغ يحب ابنه. لكنه لم يعلم ماذا ينبغى عليه أن يفعل نحوه بالضبط.

أما عن سندر. فقد كانت محبته تتصارع في داخله مع أمانته. وقد حدث مرة أنه رأى امرأة فقيرة تشحذ. فطلب مــن أبيه من أجلها لكى يعطيها طعاماً وملبســاً. لكن الأب رفــض بحجة أنه لو فعل ذلك مــرة. فإن بوابة المنزل ســوف تمتلىء من الشحاذين. فأخذته الشفقة. حتى أنه ســرق مبلغاً من أبيه. ولكنه وهو في طريقه إلى السوق. حيث كانت المرأة الفقيرة. دفعته أمانته أن يعود ثانية إلى

المنزل. حيث وجد أن سرقته قد اكتشفت. وبسبب خوفه. ابتدأ يلوم الخــدم!. وكانت النتيجة أنهم عوقبوا بالضرب بدون ذنب جنوه!.

بيــد أن ضميره دفعه لكى يوقــظ والده في منتصف الليــل واعتــرف له بكل مــا حدث. فمدحه أبــوه من أجل أمانته وشــجاعته وسمح له بأن يعود إلى فراشه. دون أن يضربه.

ولما بلغ ســندر الرابعة عشــرة من عمره. ضاق العالم فــي وجهه بعد وفــاة أمه. فقد كان يســتمد منها قوته الروحية. وكان كلما قرأ في كتبه المقدســة. استطاع أن يستعيد صوتها يردد الكلمات. وكلما صلى في الصباح. كأنما كانت هــى بجانبه. وكلمــا زار الصادهو في الغابة. كأنما كان يسير في أثر خطواتها. فقد كانت بالنسبة له. أكثر من أى شىء آخر. يقربه إلى الله.

كان ســندر يعلم أنه لا يســتطيع الحيــاة بدون الله.

ولكن الله نفسه أخذ الشخص الوحيد الذى كان يقربه إليه!. وعاد يكرر كلمات معلمى السيخية: «لا أستطيع أن أحيا بدونك يارب. كما أنى أشتاق إليك. وتعطش نفسى نحوك. وفيك وحدك يستريح قلبى».

وكلما تفوه بتلك الكلمات. لم يكن يعلم تماماً. هل كانت موجهة إلى الله. أو إلى أمه!

وحتى نهاية حياته. كان يتحدث عنها بكل وجدانه. لقد كانت أمه أكثر مَنْ يدين لهم. وقد أعلن مرة أنه إن كان يوجد شخص واحد صالح فلابد أن تكون أمه هى ذلك الشخص.

وبقى سندر منعزلاً. أما أبوه فلم يكن في مقدوره أن يساعده. وقد كان حزيناً على أثر الصدمة. ولما ذهب كلاهما إلى الرجل التقى. لم يمنحهما سلاماً. ولا كذلك رجال الدين في المعبد.

لقد حاول سندر. لمدة أشهر قليلة. أن يمارس تعاليم

اليوجا. ولكن بدون جدوى - كما أبغض معلميه في المدرسة. ولم يعد يقبل تعاليمهم. ولا يسوعهم!

ثم تغير فجأة. من طالب هادىء مسالم. إلى إنسان ذى طبيعة وحشية عنيفة. وكان يتأرجح بين رغبته في السلام الروحى. وبين عناده ضد الله. ولما أعلن له مدرسوه المسيحيون. أن يسوع المسيح الذى يخدمونه. يستطيع أن يمنحه السلام الذى يتوق إليه. فكأنهم قد أشعلوا فيه شرارة حقده المكبوت ضد كل ما قدموه إليه.

كان يرضى نفسه. ولفترة محدودة. بتصرفاته السيئة في الفصل. فكان يقاطع المدرسين بوقاحة. ويسألهم أسئلة تافهة لا معنى لها. كما كان يخرج من الفصل أثناء قراءة الكتاب المقدس. ثم رفض أن يقرأ. أو أن يستمع إلى قراءة العهد الجديد.

ومن شدة رفضه للإيمان المسيحى. استطاع أن يقنع والده بتحويله من المدرسة المسيحية إلى المدرسة

الحكومية. وكان يسير مسافة ستة أميال عبر صحراء البنجاب يومياً ذهاباً وإياباً.

وبعيداً عن سلطة مدرسة الإرسالية. استطاع أن يكشف عن كراهيته بوضوح أكثر. فجمع حوله بعض الصبيان الأشقياء الأشرار. وعيَّن نفسه قائداً لهم. وفكر أن يحطم المدرسة المسيحية. وأن يجبر المرسلين والمسيحيين في ذلك المكان على الجلاء من بلدته. فكان يقذفهم بالحجارة في الشوارع. ويلقى بالأتربة عليهم في اجتماعاتهم. ويصيح بأعلى صوته ضد كل محتج.

ولم يصدق أحد. أن مَنْ يفعل كل ذلك. هو نفس ذلك الولد. الذى كان يدخل إلى المعبد. في كل أسبوع. ليصلى مع أمه!.. وحتى والده. كان يصغى ويكاد لا يصدق. تلك القصص التى سمعها عن ابنه.

أما المسيحيون. فقد عاملوه بكل رأفة. وظنوا أنه قد فقد صوابه قليلاً. نتيجة للحزن.

ومع دخول فصل الصيف. واشتداد الحرارة. فَقَدَ سندر كل طاقته. بسبب طول المسافة التى كان يقطعها إلى مدرسته الجديدة. حتى إنه لم يتمكن من ذلك في النهاية.

ثم أصابته الملاريا. وفي حالة الإكتئاب التى أعقبت الحمى طلب من أبيه أن يحاول إعادته إلى المدرسة المشيخية الأميريكية في قريته «رامبر» مرة أخرى. أما المدرسون الذين سبق أن رماهم بالحجارة. فقد قبلوه بدون أدنى تردد في المدرسة. ثم وجدوه في حالة أهدأ. وذهبت عنه شراسته. وصار في حالة اكتئاب شديد. حتى إنه تمنى الموت لنفسه.

لم يعد يهتم كثيراً بدروسه. ولم يلتفت إلى مدرسيه. ولكنه كان يلقى بعض الأسئلة السخيفة. والتى كانت تثير ضحك التلاميذ. في حصص درس الكتاب المقدس.

لقد مضى عيد ميلاده الرابع عشر، وبدأت الحرارة تقل في شهر أكتوبر، وفي شهر نوفمبر طلب سندر فجأة من مدير المدرسة أن يبيعه نسخة من العهد الجديد، فخفق قلب الرجل، وظن أن اللحظة التى طالما صلوا من أجلها قد أتت، وقد أخبر زملاءه في المدرسة بما حدث.

لكن فرحهم لم يدم إلا قليلاً، بعد أن سمعوا سندر يقول لأصدقائه في المدرسة: «هلموا معى، ربما تندهشون لأنى اشتريت هذا الكتاب، لكن تعالوا معى إلى المنزل، لكى أريكم ماذا سأفعل به، وإن كنت لا أستطيع أن أحدد مدة حياتى، وأعتقد أنها لن تطول، لكنى سوف أعلن لكم رأيى عن يسوع وعن هذا الكتاب، قبل أن أموت».

ثم اتجه سندر إلى الفناء، ودخل المطبخ، وحمل بعض قطع الخشب، وصفيحة من الكيروسين، ولم يسمح لأحد أن يساعده، ولكنه سكب بنفسه الكيروسين على الخشب، وقرب إليه النار، فاشتعلت الأخشاب، وارتفع

اللهب عالياً، ثم أخذ العهد الجديد، وفتحه، وبدأ ينزع منه ورقة تلو الأخرى، ويلقى بها في هدوء إلى النار.

وفجأة لمحه أبوه، وفي يده الكتاب، وهو يلقى بصفحاته إلى النار حتى تتحول إلى رماد، فصاح فيه قائلاً: «هل جننت أيها الولد، فتحرق كتاب المسيحيين؟... إنه كتاب صالح، وهكذا كانت تقول أمك، وأنا لا أريد لهذه الأعمال الشريرة أن تحدث في منزلى، قف... هل تسمع؟ كفى».

ونظر سندر إلى أبيه، ولم يلحظ أن أصدقاءه، بدأوا ينسحبون من المكان، ثم ألقى بالكتاب كله إلى وسط النار، ودفعه بقدمه، ثم اتجه في سكون ودلف إلى منزله.

(٣)

الرؤيـــا

(٣ ديسمبر ١٩٠٣)

لقــد كان احراق الكتاب هو آخر عمل وجهه ســندر ضــد الله، ولو لم ينقــذ الله حياته لكان قــد أنكر الله تماماً ثم مات.

ومنــذ وفاة أمــه، وهو يبحــث عن الســلام، لكنه لم يحصل على شــيء. وقاســى فترة من اليــأس حتى امتلأ قلبــه من المــرارة والألم، وظــل حبيس غرفتــه ثلاثة أيام كاملــة، ثم قال: «إذا كان الله يريدنى أن أعيش فليقل لى ذلك بنفسه!».

«آه. يــارب! إن كان هناك إله، فليعلن نفســه لى هذه الليلة!».

لم يكن ســندر نائماً، ولم يكن فــي حلم، لكنه ظل

واقفاً في صمت، واســتطاع أن يسمع صوت القطار يطن فــي أذنيه، وكان يعلم ما ينوى عليــه، ولم يكن ذلك قراراً مجنوناً، بل نتيجة حتمية لتفكير هادىء وتأمل.

ثــم علت صفــارة القطــار الأخير في الليــل وهو في طريقه بعيداً عن «لاهور». أما القطار الســريع الذى يليه فيمر بقريته «رامبر» في الخامسة صباحاً.

لقد بيت أمراً في نيته، وهو أن يتجه إلى خط السكة الحديديــة ويضع رأســه علــى القضبان، في ظــلام الليل الدامس، في انتظار القطار الذى يضع حداً لشقائه!.

ثــم ترك المنــزل، وذهب إلى غرفة الحمــام، وفي صقيع الليل، تــرك المياه الباردة تنصب على رأســه وعلى كتفه لمدة ساعة كاملة قبل أن يعود إلى غرفته، وكانت هنالك سبع ساعات باقية قبل مرور القطار.

«آه يارب! إن كان هنالك رب فليعلن نفسه لى قبل أن أموت». ومرت الساعات.

كان القمر في الخارج يسطع بنوره الوضاء في كبد السماء. أما سندر فقد جلس على الأرض صامتاً لا يسمع شيئاً. بيد أن طنين القطار السريع كان يرن في أذنيه.

ثم تحرك ببطء في المساء. وفي الساعة الخامسة والربع تماماً فتح سندر باب غرفته فجأة. واندفع منه بسرعة ودخل غرفة أبيه. واتجه نحوه حيث كان نائماً على فراشه. ثم أمسكه من كتفيه.

فقفز «شير سنغ» من فراشه وأزاح غطاءه. وكاد يسقط على ساقه العرجاء. لولا أنه تعلق بكتف ابنه. ثم سأله: «ما الحكاية يا ولدى؟!».

أما إجابة سندر فقد جعلت أباه يفوق أكثر من نومه. إذ قال له: «لقد رأيت يسوع!».

فعاد الرجل يجلس على فراشه. ونظر إلى وجه ابنه. وقال له: «إنك تحلم يا ولدى. عد إلى فراشك!».

لكن سندر عاد يقول له: «لست في حلم». ثم شرح

له كيف عزم على أن ينهى حياته تلك الليلة. ما لم يحدث له شيء. واستمر يقول: «لكن شيئاً قد حدث. ومنذ دقائق قليلة أتى يسوع إلى غرفتى. وبينما كنت أصلى للمرة الأخيرة إذا بسحابة لامعة مضيئة ملأت غرفتى فجأة. ومن خلال هذا النور ظهر وجه وصورة يسوع!.. ثم تحدث معى..».

- «تحدث معك؟».

- «نعم. وقال لى إلى متى تضطهدنى. لقد أتيت لأخلصك. لقد كنت تصلى لكى تعرف الطريق الصحيح. فلماذا لا تحصل عليه. أنا هو الطريق! وكان حديثه بلغتنا. نعم لقد تحدث معى. ثم سقطت عند قدميه. ولا أعلم كم استغرق ذلك من وقت. لكنى بعد ما نهضت ذهبت الرؤيا. نعم. إنها كانت رؤيا. لأنى لم أكن أظن أن يحدث ذلك. ولم أكن راغباً فيه. وربما تمنيت أن أرى «كريشنا» أو واحداً من آلهتنا. لكن ليس يسوع».

وظل أبوه يراقبه وهو يشك في قواه العقلية، لكن سندر استمر يقول: «أنا الآن مسيحى، ولا يمكننى أن أخدم أحداً سوى يسوع!».

ولكن «شير سنغ» تكلم في هدوء، وكان يعلم أن ابنه أبعد ما يكون عن النوم في تلك اللحظة، وقال: «أنت نصف نائم يا ولدى، أو أنك مجنون عد إلى فراشك».

ثم اقتاده إلى باب غرفته، وعاد يقول له: «إنك حتماً مجنون، لأنك تأتى إلىّ في نصف الليل وتقول أنا مسيحى، ومنذ ثلاثة أيام كنت تحرق الكتاب المسيحى!».

فنظر سندر بجفاء إلى يديه، وقال: «إن هاتين اليدين قد فعلتا ذلك، ولا يمكن أن أطهرهما من تلك الخطية حتى يوم وفاتى، ولكن إلى ذلك اليوم ستبقى حياتى ملكاً له».

(٤)

الاضطهاد

(١٩٠٤ - ١٩٠٦)

وفي الصباح التالي تحاشى شير سنغ أى صدام مع ابنه البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، وكما هو مألوف في الهند عن الوقار العائلى فلم يخطر ببال الأب أن ابنه سوف يعارضه، وتمنى لو أن الولد أقر بأنه كان يحلم، لكنه رفض، فحاول معه بطريقة أخرى، وقال له: «يمكنك أن تبقى تلميذاً ليسوع، ولكن سراً، ويستمر مظهرك الخارجى كأنك على إيمانك القديم، فإن أمك نفسها كانت تجد بعض الحق في كل ديانة».

بيد أن سندر رفض تلك الخدعة.

وقد كان وجهه اللامع، وإحساسه بالسعادة، وحديثه مع رفقائه في المدرسة، كل ذلك كان شهادة على ما

حدث فيه من تغيير. وكثيراً ما كان يتحدث باهتمام مع المدرسين المسيحيين الذين كان يسخر منهم منذ أيام قليلة كما كان يتحدث مع جماعة المسيحيين في القرية حتى أصبح هذا التغيير الذى حدث معه محور غضب كل القرية. ومن هنا بدأ الاضطهاد!.

وبعد أن فشلت عائلته في اقناعه بالاقلاع عن إيمانه الجديد، حرضت بعض الأولاد لمضايقة سندر، فكانوا يتهكمون عليه في الطريق، كما كان يفعل هو مع مدرسيه. أما شقيقه فقد كان يلعنه داخل البيت وخارجه، كما افترى عليه لتشويه سمعته، والناس في الطريق كانوا يبصقون على الأرض كلما مر سندر بهم.

ولما مات أحد ألد أعداء سندر متأثراً بداء الكوليرا توقف الاضطهاد العلنى على سندر، وتحول إلى جماعة المسيحيين ككل. وأغلقت المحلات التجارية في وجوههم، ودمرت بيوتهم وممتلكاتهم، فهربوا إلى قرية أخرى

اسمها «روبر»، حيث كان بها أحد الرعاة المسيحيين ومستوصف صغير.

ومما كان يزيد سندر خوفاً، ما حدث مع أحد رفقائه في المدرسة، الذى تأثر بحياة سندر وصار مسيحياً، بعد أن كان سيخياً، فأخرجوه من المدرسة، وأوقفوه في المحكمة، ثم تخلصت منه عائلته بأن دست له السم حتى لا يجلب عليهم العار. وكان سندر يعلم أنه معرض لنفس المصير.

أما محبة والد سندر فقد انقلبت إلى كراهية يائسة، لكنه حاول أن يستمر في معاملته برفق، ولم يعارضه في ذهابه إلى مدرسة داخلية مسيحية في مدينة «لود هيانا».

والأولاد في الهند يحتفلون ببلوغهم سن الرشد في السادسة عشرة من عمرهم، وكان سندر لم يبلغ بعد الخامسة عشرة، ويستطيع أن يعلن مسيحيته، لكنه لم يتمكن من العماد ما لم يوافق أبوه على ذلك.

عاد الأب يفكر في طريقة يربط بها ابنه إلى العائلة، مثل الزواج!. فأرسل خطاباً إلى ابنه بهذا الشأن، وكتب له في نهاية الخطاب هكذا: «ابنى العزيز، نور عينى وراحة قلبى، ليتك تعيش طويلاً. نحن كلنا هنا بخير، ونتمنى لك نفس الشىء. إنى آمرك أن تتزوج حالاً!. وعليك أن تسرع ولا تخذلنا جميعاً. هل الديانة المسيحية عصيان الوالدين؟ يبدو أنك قد جننت. فكر لحظة فيمن سوف يهتم بكل ممتلكاتنا؟ أم أنك تريد تدمير العائلة؟ ولو تزوجت فسوف أوصى لك بكل ما أحتفظ به من مال في ثلاثة بنوك، وتبلغ قيمة الفوائد فقط ما بين ٣٠٠ ـ ٤٠٠ روبية (وحدة العملة الهندية) شهرياً. وإذا رفضت تفقد كل شىء. إنه من صالحك أن تعود إلى المنزل الآن، أما أنا فلست معافى...».

وقرأ سندر الرسالة للمرة الثانية، ثم طواها ووضعها في جيبه، وودع مدير المدرسة، وعاد إلى قريته «رامبر».

لما وصل قام الجميع بتحيته، ووضع أبوه يده على كتف ابنه وسار معه إلى داخل المنزل، وقال له والدموع في عينيه: «يا ابنى، لقد عدت لكى تفعل ما أمرتك به!».

وصمت سندر قليلاً قبل أن ينطق بكلماته، التى كانت كالصاعقة، وقال: «كلا يا أبى، لا أستطيع أن أفعل ما أمرتنى به، فأنا خادم للرب يسوع، ولكنى عدت لأن التلاميذ في المدرسة لم يكونوا بالصورة التى توقعتها، وقد أكون متكبراً لأنى لم أتمكن من العمل أو الحياة معهم، ويجب علىّ أن أتبع يسوع، وأتبعه هو بطريقتى الخاصة.. بل يجب أن أتبعه في رامبر، وليس في لود هنا، بين أولئك الأولاد الذين لم يعرفوه قط».

وتبع ذلك فترة من الاقناع والاضطهاد، لكن الاضطهاد زاد بشدة في الأسابيع الأخيرة، فلم يعد أبوه يتحمله، ولعنه شقيقه، أما عمه فقد أخذه وحاول أن يغريه بماله وكنوزه، لكن إجابة سندر كانت واحدة.

حاول معه أحد أقاربه. وقد كان يعمل مع كبار الدولة «المهاراجا». ودعاه إلى قاعة أحد الأمراء الهنود. ووقف أمامه سندر. وتحدث إليه الدربار (الأمير) وقال له: «لماذا تجلب العار على جنسك يا سندر. فإنك تضع سوار السيخيين ـ تابعى الديانة السيخية ـ في يديك وشعرك مسترسل مثلهم. كما أنك تحمل اسماً سيخياً. فلماذا لا تتصرف نظيرهم؟!.. كما أنك «سنغ». وأنت تعلم معنى هذه الكلمة. والتى من أجلها مات سابقونا».

فأجابه سندر: «نعم يا سيدى. إنها تعنى الأسد».

ـ «فلماذا أنت يا مَنْ تحمل لقب الأسد تتصرف مثل الكلب الجبان في الصحراء؟».

بيد أن سندر لم يعط إجابة. وبعد فترة وجيزة ترك قريبه وعاد إلى منزله. بينما كانت كلمات ذلك الأمير تتردد في ذهنه: «لك اسم سيخى وشعرك مثلهم...». فقرر أن يغير من شكله حتى يقنع عائلته أنه لن يتخلى عن مذهبه الجديد.

وحالما وصل إلى منزله دخل إلى غرفته. وقام بقص شعره الطويل ـ الذى كان يطيله حسب عادة أهله. وقد أثار ذلك غضب والده. فلم يكن ذلك مجرد إهانة للعائلة. بل كان عاراً لجنسهم. أولئك الذين فضلوا الموت على العار والإهانة.

كان ذلك عصياناً لا يمكن الصفح عنه. وفي حضور جميع أفراد العائلة. وأمام الخدم. وفي جنح الظلام. اقتاده أبوه نحو الباب الخارجى وقال كلماته الأخيرة طارداً إياه من البيت: «إننا نرفضك إلى الأبد. وباسم العائلة كلها أعلن أنك لست أهلاً لكى تُدعى ابننا. وسوف ننساك كما لو لم تُولد قط. وسوف تترك هذا البيت بدون شىء سوى الملابس التى على ظهرك. والآن اذهب!».

وبهذه الكلمات خرج سندر ليقضى ليلة في الغابة تحت الشجرة. وقد أمسك بيده الشىء الوحيد الذى كان يمتلكه. ألا وهو العهد الجديد. وقد غمرته السعادة لأنه

دُعـى أن يتألم هكذا علناً من أجل يسـوع. وقد بدأ الألم يشتد في معدته.

وفي الصباح اتجه نحو السكة الحديدية حتى يتمكن من الوصول إلى لود هيانا.

وبعد نصف سـاعة من ركوبه القطار اشتد به الألم. وفجـأة بدأ يتقيأ دمـاً. وهنا أدرك أنه لـم يطرد فقط من المنزل. لكنهم قد دسـوا له السـم فـي طعامه ليكون الموت هو جزاء فعلته المريرة ضد العائلة !..

ومـن حسـن الحـظ أن سـندر اسـتطاع أن يتـرك القطار. واتجه نحو «روبـر» ـ تلك القرية التى هرب إليها المسيحيون بعد الاضطهاد الذى حل عليهم في «رامبر» ـ وهناك أعطاه الراعى والصيدلى علاجاً أنقذه من الموت بأعجوبـة. وتمكن بعد ذلك من مواصلـة رحلته إلى لود هيانـا. وقد أقام مع أمريكيين مرسـلين حتى اقترب عيد ميلاده السادس عشر.

ثـم اضطر أن يترك ذلـك المكان. لأن بعـض الصبية الأشقياء قاموا بتهديد الإرسالية وهدم المكان إذا استمر فيه سندر ضد إرادة العائلة.

كان سـندر يبحث عن السـلام. وفي طريقه للتأمل اتجه صاعداً نحو مستشـفى للجذام في «سـاباتهو». وأصبح ذلك المكان مسكناً مؤقتاً له. وأسفل ذلك المكان اسـتطاع أن يـرى بوضوح سـهول البنجـاب. ولما صعد بعض التلال شـاهد الثلوج التى تعلو جبـال الهمالايا. وكان لونهـا وردياً عند بزوغ النهار وهى تحجز من خلفها هضبة التبت.

وبينمـا كان يتجـول هنا وهناك وينتظـر ويصلى ـ وإن لم يحاول أن يخطط بعيداً لنفسه ـ امتلأت رأسه بهذه الفكرة: أن مسـتقبلى يجب أن يكون وسط هذه التلال والسـهول وتلـك الأرض المغلقـة ـ ويقصد بها هضبة التبت.

وفي بداية شهر سبتمبر صعد التل المؤدى إلى مدينة «سملا». ووجَّه نظره نحو مبنى كنيسة المسيح الذى يتوسط أعلى المكان. وكانت تليه التلال الأخرى المؤدية إلى هضبة التبت.

وفي اليوم الثالث من شهر سبتمبر عام ١٩٠٥ بلغ السادسة عشرة من عمره. وأصبح رشيداً حر نفسه طبقاً لقوانين بلاده. وفي ذلك اليوم. في عيد ميلاده. قام أحد القسوس بتعميده. وصار مسيحياً.

وبعد أربعة أسابيع بدأت حياته العملية الحقيقية.

(٥)

الروب الأصفر

(١٨٩٦)

مهما يأتى به المستقبل. فإن الماضى قد انتهى. وقبل ذلك اليوم. الذى وقف فيه بمفرده. معترفاً بإيمانه أمام مذبح الكنيسة في «سملا». كانت هنالك فرصة للرجوع. لكنه الآن. وقد أصبح مسيحياً معمداً. وعضواً بين جماعة المسيحيين. فقد اعتبر أقل من ميت بالنسبة لعائلته.

وفي الحقيقة. لقد كانت مديونيته لجماعة المرسلين أكثر مما كانت لشعبه هو. لأن المرسلين اعتبروه بطلاً بنعمة الله. أما المسيحيون الهنود فقد ظنوه متكبراً. حديث السن. وذا حماس زائد.

وقد كان وقوفه وحيداً في الكنيسة. وقت عماده.

شـيئاً عجيباً، وإعلاناً عن انفصاله عـن العالم، ودخوله إلـى محضر الله. وبعد أن ترك تلك الكنيسـة، عائداً إلى «ساباتهو»، كان يبدو مثل أى ولد هندى. لكنه، في وحدته، كان يختلف، فلم يسـاعده أحد، وأصبحت المعركة التى أمامه هى معركته، والقرار قراره هو، ولابد له من أن يقضى بضعة أسابيع أو أشـهر في مرارة الصراع العقلى، حتى يعود إلى صفاء ذهنه وإلى حياته اليومية في العالم.

إن المعركـة كانـت معركتـه!.. وبدأ يسـير بقدميه العاريتين، وقد نفذت إليهما أشواك الغابة. بيد أن كلمات المزمور المحبب إليه، والتى استمع إليها أثناء عماده، كانت تـرن في أذنيه. ووقـف صامتاً. لكن هـل كان الصوت من داخل قلبه، أو كان من مصدر آخر بجانبه؟ فإلى مسامعه كانت هذه الكلمـات تتناهى: «الرب راعىّ... يرد نفسـى، يهدينى، إذا سـرت في وادى ظل الموت لا أخاف شـراً لأنك أنت معى... إنما خير ورحمة يتبعاننى كل أيام حياتى».

والتفت سـندر جانباً كأنما توقع أن يرى المتكلم، فقد كان الصوت حقيقيـاً، والمتكلم حقيقياً!.. لكن لم يكن هنالـك أحد. وكان الصوت يختلـف عن أى صوت آخر قد سـمعه من قبل، باستثناء ذلك الصوت الذى تكلم إليه مرة داخـل غرفته في قريته رامبـر. وعندئذ تأكد من أنه لـن يبقى وحده بعـد ذلك، مـدى حياته، بل إن شـعوره الغريـب والخفى بالله، بغير خضـوع للحواجز الطبيعية في العالم، هو ما كان يحبب فيه أهل الشـرق، ويحيِّر به أهل الغرب.

ولو لم تكن له حياة الإخلاص التى لا لوم عليها، لكان من السـهل لاختباراته الغريبة الغامضـة أن تقوده إلى الكبرياء.

ثم غاب سـندر عن أصدقائه لمدة شـهر، كان يصارع فيه من أجل معركته الروحية بمفرده، مثل «الصادهو».

وفي تلك الأثناء عاد تفكيره إلى ذلك الرجل الناسك القديم. وتذكر كلماته: «ربما يصبح هو نفسه «صادهو». وهل يوجد ما هو أفضل من أن يتحد بالله فوق هضاب الهيمالايا؟ وهل كان له مكان في الكنيسة الهندية؟.

لقد كان قروياً هندياً. أما الكنيسة فقد كانت غريبة ولا تتلاءم معه. وكل نظمها غريبة. والترانيم كانت مترجمة. والخدمات كانت مثل التى في بريطانيا أو أمريكا. والأعضاء يعتمدون على الإرساليات التى كانت تعولهم. ويقلدون المرسلين في عاداتهم.

لقد تعلموا الإنجليزية. وأكلوا بالطريقة الغربية. كما ارتدوا الملابس الغربية !..

وبذلك أصبحت الكنيسة المسيحية هى كنيسة الغرب. ولكن في الهند.

وكان سندر يعتقد ـ في ذلك الحين ـ أنه إذا كانت

الكنيسة آنذاك تريد أن تنقذ نفسها. أو بالحرى تريد أن تنقذ النفوس في الهند. فإن عليها أن تقدم إنجيل المسيح بطريقة هندية! أما هو فيجب أن يبقى أميناً لتراثه وأميناً لمخلّصه.

مَنْ ذا الذى يحمل من صفات الهند أكثر من «الصادهو». ذلك الرجل التقى الذى ينغمس في تأملاته ويقوم بتعليم أولئك الذين يصلون إليه في عقر داره؟.

وفي الثالث من أكتوبر ـ أى بعد شهر واحد من معموديته ـ وضع سندر عمامة صفراء على رأسه. كما ارتدى ثوباً أصفر. كما يفعل كل «صادهو». وترك ساباتهو.

لقد أصبح سندر «صادهو». ولكن بطريقة مختلفة. ولقد اعترف أنه اختار هذا الطريق لكى يتشبه بسيده. وقال: «أنا لست مستحقاً أن أتبع خطوات سيدى. لكى أتشبه به. فلا أريد موطناً. ولا ممتلكات. وسوف أسير في

الطريق أقاسم شعبى عناءه، وآكل طعامى مع أولئك الذين يؤووننى، وأخبر الجميع عن محبة الله».

ثم مضى وقت طويل حتى تعوَّد أصدقاؤه على تلك الفكرة، والتى كانت تبدو لهم أنها شاذة، لأن سندر كان يجمع ما بين إنكار الذات الذى يتميز به الصادهو الهندى وبين وعظه وإرشاده حسب الطريقة الغربية، وكان ذلك لكى ينهض بالكنيسة الهندية من جديد.

أما ثوبه الأصفر، فقد كان يمنحه تصريحاً بالدخول إلى أى مكان، وإن كان البعض يرفضونه كمسيحى، لكن في أماكن أخرى كانوا يرحبون به لنفس هذا السبب.

لكن لم تكن له تلك اللحية التى تميز بها رجال الدين في الهند، بل كان طويل القامة، حسن البنية، ويبلغ من العمر ستة عشر عاماً فقط، كما كان نظيفاً، قوياً، تشع منه السعادة، ولديه الكثير من القصص عن التلال التى كان يعيش فيها.

وحاول أن يجرب طريقته الجديدة في قريته أولاً، وإن كان لم يزل مرفوضاً من عائلته، إلا أنه اندهش من الذين أصغوا إليه بشغف من أولئك الذين كان تلميذاً بينهم منذ سنتين فقط، كما فتحت بعض البيوت الراقية أبوابها له، وقضى هناك وقتاً مع المسيحيين الذين عادوا من قرية «روبر»، تلك التى أوشك فيها على الموت بعد تسممه.

ولما سألوه عن برنامجه أجاب قائلاً: «ماذا تتوقعون من صديقكم «الصادهو» سندر؟ إنى مرتبط بهذه الملابس، وبمشيئة الرب لن أتخلى عنها»، وكانت تلك هى إجابته باستمرار.

لكن الترحاب غير المتوقع الذى لقيه في قريته «رامبر» كان إعداداً ناقصاً له بالنسبة لرحلته الشتوية الأولى عبر التلال في الشمال، وحتى حدود أفغانستان.

وحيث أن نشأة سندر كانت مرفهة، ولم يتعود النوم

في الخلاء. فقد عانى كثيراً من الجو والناس. ولم يكن ثوبه الأصفر الرقيق كافياً ليحميه من الصقيع والثلج. كما لم يكن يلبس صندلاً في قدميه. فكان الدم يسيل منهما. ولذلك فقد لقبوه بـ «الرسول صاحب الأقدام الدامية».

أما تلك الرحلة الأولى. فقد كانت حوادثها عجيبة. وحدث في أحد الأماكن. بعد أن رحبوا به بسبب ردائه الأصفر.أن دفعوا به تحت الأمطار الجارفة حالما ذكر لهم اسم يسوع. مما اضطره أن يلجأ إلى كوخ محطم. كان صديقه الوحيد فيه هو ثعبان الكوبرا الأسود.

وفي مكان آخر رافقه أحد الرعاة. وتحدث معه في أمور روحية لا يتوقع أحد أن تصدر من راع. ثم اختفى عن نظره تاركاً سندر بعينيه اللامعتين يردد كلمات العدد الأول من المزمور الذى استمع إليه أثناء معموديته.

وقام آخرون في مكان ثالث بطرده. وكانوا يعتزمون قتله. ولكنه تحذر وهرب. ولما وجدوه في قرية أخرى يعظ

ركعوا أمامه. وطلبوا منه الصفح. كما توسلوا إليه أن يحدثهم عن الأخبار السارة الخاصة بيسوع!.

وفي الربيع. في مدينة سملا. تقابل مع أمريكى يُدعى «صموئيل ستوكى». وكان من طائفة الكويكرز - وهى طائفة تؤكد على البساطة في الملبس. ويكرهون الطقوس الخارجية ويقاومون الحرب - وبدلاً من أن يستريح سندر بعد رحلته الشتوية الشاقة اصطحب ذلك الرجل وقام بجولة أخرى. وكان يسافر ليلاً وينام نهاراً. وكان يعظ مستخدماً فانوساً سحرياً. حتى أصابته نوبات متكررة من الملاريا ألزمته الفراش. فلجأ هو وصديقه إلى منزل أحد الفلاحين.

وانتهت رحلة سندر عند هذا الفلاح. لكن ذلك الفلاح بدأ رحلته من تلك اللحظة بعدما تأثر من حياة الشاب سندر وأصبح مسيحياً مكرّساً.

واستمر يعمل في الصيف مع «ستوكى» في مستشفى

الجذام في ساباتهو. ثم نزلا معاً وعملا في تمريض حالات الطاعون الذى انتشر في قرى البنجاب وفي لاهور.

وقد تعلم سندر الكثير عن الخدمة. كما سعد بالشركة الروحية التى كانت له مع ذلك الخادم الذى عاد إلى أمريكا في عام ١٩٠٨.

(٦)

في جبال الهيمالايا

(١٩٠٨)

لقد وُلد سندر مغامراً. ولم يستطع أحد أن يثنيه عن فكرته. وحياة «الصادهو». للهروب من متطلبات العالم.

وبطبيعة الحال. كان يخجل من الغرباء. ومن الغربيين. لكنه كان يتحدث مع أصدقائه. الذين كانوا يتعجبون منه.

وفي غضون عامين. استطاع أن يتجول في كل شمال الهند. متحملاً البرد. والحر. والطاعون. والملاريا. والكوليرا. كما واجه الموت مرات عديدة. وتعلم كثيراً عن الطبيعة. والحيوان. والإنسان. ما لم يتعلمه الأساتذة طوال مدة حياتهم.

لقد كانوا لا يصدقون بعضاً من مغامراته. وإن

كانوا يثقون دائماً في أمانة سـندر الشخصية، إلا أنهم اعتقدوا أنه ربما اختلطت عليه الحقائق بسـبب اختباراته السامية.

والشـيء الوحيد، الذى لم يقلل أحـد من أهميته، هو تكريس سـندر الكامل لله، ورغبته الشديدة في أن يسـتخدمه الله لانتشـار الإنجيل، ولإنتعاش الكنيسة في الهند.

كمـا وجـدوا أن روح المغامـرة فيه قد تعدت الحواجز المنتشـرة فـي الهيمالايا. وكان مرجعه دائمـاً هو مدينة سـملا، أسـفل تلال الهيمالايا، حيث كانت تجوالاته قبل وبعد معموديته.

وصعد مرة إلى قرية يبلغ ارتفاعها ٩٠٠٠ قدم، وهناك تقابل مع الفلاحين الذين كانوا يعملون في وقت الحصاد. وفوجيء أحدهم، وكان يُدعى «ناندى»، بأن الرجل التقى - أى سـندر - يقف أمامه. ولذلك اضطر مع بقية الفلاحين

أن يتوقفـوا عـن العمل، احتراماً له. وقـد ضايقهم ذلك، بـل لقد تعاظـم ضيقهم عندما تحققـوا أن ذلك الرجل التقى لم يكن هندوسياً أو بوذياً، بل مسيحياً متنكراً في زى «صادهو»! ولذلك، قام شـقيق «ناندى» برميه بحجارة أصابته في جبهته.

أما بقية الفلاحـين فقد وقفوا مرتعبـين، ومتوقعين حلـول لعنة «الصادهو» عليهـم. لكنهم بالعكس، لقد سـمعوه يتمتـم ويقول: «يـا أبتـاه اغفر لهـم». وظلوا يراقبونه عندما تحول عنهم وذهب لكى يغسل وجهه.

وفي ساعة الظهيرة، وقع شقيق «ناندى» على الأرض، متأثراً بصداع شـديد، فظن الفلاحـون أن ذلك كان عملاً سـحرياً من الصادهـو. لكنهـم تعجبوا عندمـا وجدوا سـندر يتقدم بهدوء إلى الحقل، ويمسك بمنجل ذلك الرجل، ويعمل نيابة عنه.

وقضى سندر تلك الليلة في منزل «ناندى». وتحدث طويلاً إلى مجموعة من القرويين. وكان يجد ترحيباً عظيماً منهم، كلما مر بهم بعد ذلك. بل إن شيئاً عجيباً آخر قد حدث، ألا وهو أنه في حصاد السنة التالية كان محصول ذلك الحقل الذى اشتغل فيه سندر يفوق كثيراً محصول أى حقل آخر كان يمتلكه «ناندى».

ثم عاد سندر إلى مدينة أخرى، تبعد ميلاً واحداً عن القرية السابقة، ويبلغ ارتفاعها ٧٠٠٠ قدم، وتبعد مسافة خمسين ميلاً عن «سملا»، ولم تكن تلك تبعد كثيراً عن المرسلينْ الألمانيين، اللذين كانا مسئولين عن المستوصف والمدرسة المجاورة له.

ثم صعد سندر كثيراً في الطريق المؤدى إلى «رامبر»، عاصمة ولاية باشهارها، وسط الغابات العريضة، والأراضى المزروعة، والبساتين الهندية.

وفي «رامبر»، كانت البيوت لها أسقف مثل التى كانت

فـي التبت، وكانت الثيران الضخمة ذات الشعر الطويل تحمل التجار والمتجولين، أصحاب الوجوه المنغولية، وتصعد بهم إلى التبت، تلك الأرض المغلقة في وسط آسيا.

أما سندر، فكان يقول دائماً، بروح الشجاعة والتحدى: «إن التبت هى مسئوليتنا. لقد وصل الإنجيل إلينا، ولا يجب أن نحتفظ به لأنفسنا، بل نذهب به إلي التبت، مهما كان ذلك صعباً أو خطيراً». وقد واجه هو نفسه ذلك، لمدة ثمانية عشر شهراً بعد معموديته.

لقد حاولت إرساليات كثيرة، منذ القرن الرابع عشر، أن تؤسس كنيسة مسيحية في التبت، لكن محاولاتهم باءت بالفشل. إن ستة ملايين من البشر، وهم سكان هضبة التبت العالية، يعيشون في خوف، وقذارة وانحطاط.

أما الحكام في المكان، فهم «اللاما»، وفي نفس الوقت كانوا هم قادتهم الدينيين. وكانوا يعتمدون في حكمهم

على جهل وشعوذة الشعب. ولذلك كانوا يرفضون السفر ولا يقبلون التجار من الهند أو من المغرب ويمنعون التعليم، لا سيما المسيحية.

كانوا جميعهم بوذيين، ومعظمهم كأنهم يتعبدون لشيطان، نظراً لتعصبهم وقساوتهم.

وكل مَنْ حاول اختراق التبت كان يتحمل خطورة ذلك. أما محاولة عبور الهيمالايا، والمناداة بالإنجيل في تلك الأرض المغلقة، فلم تكن تحمل خطورة فقط، بل الموت المؤكد!. ولقد تحمل سندر هذه الخطورة، ليس مرة واحدة، بل مرات، وعاماً بعد عام، مواجهاً عداوة الحكام والشعب، بالإضافة إلى مخاطر جبال الهيمالايا الثلجية.

كانت محاولته الأولى في أوائل صيف ١٩٠٨، وكان يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، وتوجه إلى التبت الصغرى، وساعده اثنان من المرسلين، هما اللذان أضافاه،

وعلماه شيئاً عن لغة التبت وسلماه شاباً ليساعده في الترجمة.

وارتعب سندر من منظر الشعب هناك، ومن بيوتهم القذرة الخالية من التهوية. كما ارتعب أهل التبت كذلك، عندما رأوا «الصادهو» يستحم في الثلج، وألقوه خارجاً، لأن «الرجل التقى لا يجب أن يغتسل»!.

والطعام الوحيد، الذى استطاع أن يحصل عليه، كان هو الشعير المجفف، وكان جافاً، حتى أن البغال لم تكن تقترب إليه.

أما شراب الشاى، فكان مخلوطاً بالملح، ولم يكن مستساغاً.

وكانت أعلام الصلاة ترتفع في كل مكان. أما مناداة سندر العلنية عن يسوع، فكانت تثير غضب الشعب مع الحكام، ولذلك كان سندر يتنقل، مع مترجمه، من قرية إلى أخرى، منبوذين وبلا مأوى. ولم يجدا معاملة طيبة

إلا فــي مدينة صغيرة، حيث رحب اللاما بســندر وأعطاه الحرية للوعــظ في معبد مقاطعته التــى يبلغ تعدادها أربعمائة شخص.

وأثنــاء عودته، ومــروره بالأماكن التى ســبق أن ذهب إليها، وجد أن العداء ضده صار أكثر. وكان يجب عليه أن يعود قبل أن يغطى الثلج تلك الممرات في فصل الشتاء كلــه. وكان مجــرد التفكير في العودة إليهــا مرة ثانية يبدو صعباً.

ومــع ذلك، فقد رتــب لرحلة العودة، حالمـا تفتح تلك الممرات بعد ذوبان الجليد.

كانت تلك الرحلة هى الأولى من عشــرين رحلة، بدأت عام ١٩٠٨ واســتمرت حتــى ١٩٢٩. ولم تخل واحدة منها من الخطر، بل في معظمها كان يواجه الموت.

(٧)

الهروب من الضمان

(١٩٠٩ - ١٩١١)

أعلــن ســندر لأصدقائه قائــلاً: «أريــد أن أذهــب إلى فلسطين أكثر من أى مكان آخر في العالم».

وفي عـــام ١٩٠٨ وصــل إلى »بومبــاى» - أحــد موانى الهنــد - لكنه أصيــب بخيبة أمل مريــرة عندما رفضت الحكومــة التصريــح له بالخــروج، ولذلك عــاد أدراجه إلى شــمال الهند. وفي القطــار كان يتأمل كيف أن يســوع نفســه كان نظيره من بلاد الشــرق، وأن الإنجيل قد وصل أولاً إلــى الهنــد - كما يقــول التقليد - ليــس عن طريق الإرساليات الغربية، بل عن طريق رسـول سورى.

وحــدث اضطــراب عندما توقــف القطار فــي إحدى المحطــات، وكانــوا يحملون رجــلاً «براهمياً» - أحــد أفراد

طبقة الكهنوت العُليا عند الهندوس ـ إذ كان مغشياً عليه بسبب الزحام في عربة الدرجة الثالثة حيث كان سندر جالساً.

ثم رأى ناظر المحطة يتقدم إلى ذلك الكاهن بكوب من الماء، لكن الكاهن رفض أن يلوث فمه ويشرب من الكأس، حتى لو كان في ذلك إنقاذاً لحياته، وعندئذ تقدم أحدهم ووضع الماء في إناء نحاسي، فتلقفه الكاهن منهم وشربه بسرعة.

ولما تحرك القطار، بعد أن انتعش الرجل، التفت سندر إلى مَنْ كانوا بجواره وقال: «هذا ما كنت أقوله أنا دائماً لأصدقائى المسيحيين. إننا نقدم المسيحية في إناء غربى، ولذلك ترفضه الهند. أما إذا قدمنا لهم ماء الحياة في إناء شرقى فإنهم سيفهمونه ويتقبلونه بسرور».

لقد وجد سندر نفسه في وسط أعظم مشكلة بالنسبة للكنيسة في الهند. فقد كانوا يعتبرون

المسيحية كأنها إضافة خارجية غريبة على الديانات الهندية، لا سيما وأن الذين نادوا بها كانوا من الإرساليات الغربية، وكثيرون من الذين قبلوها وجدوا الأمان في خدمة الكنيسة أو الحكومة. وكان يعتقد أنه ما لم تصبح المسيحية إيماناً داخلياً، وفي صورة هندية وطنية فإنها سوف تفشل.

قال له أحد أصدقائه المرسلين، وكان مقرباً إليه: «إذا كان هذا هو تفكيرك فإن واجبك ليس نحو الكنيسة الهندية فقط بل نحو غير المسيحيين أيضاً. وأنا أعلم كم أنك تحب ذلك الرداء الأصفر، وأقدر قيمة خدمتك في القرى، وأنك تقدم للهند ماء الحياة في إناء شرقى. لكن عليك أن تُعلّم مَنْ في الكنيسة أن يفعلوا نفس الشيء. وطالما أن لك اختباراً مع المسيح، وأنت تشرك فيه غير المسيحيين، فبالأحرى يجب أن تشرك معك أنصاف المسيحيين في الكنيسة».

وتحت ضغط من أصدقائه قبل أن يقضى عاماً أو عامين في كلية القديس يوحنا اللاهوتى في مدينة لاهور. كان يشعر من البداية بعدم الرضا وعدم الراحة. لكنه قَبِل بعد ما حاول معه مدير الكلية، معتقداً أنه إذا استمر معهم سندر فهو الوحيد في ذلك الوقت الذى يستطيع أن يقنعهم بفكرته.

لكن دراسته في الكلية كانت قليلة. ولم تكن الدراسة صعبة عليه، وقد كانت سنه الصغيرة تساعده على ذلك. وكان يصغى إلى المحاضرات عن الكتاب المقدس ويستمع إلى الصلوات المكتوبة فيجد أنها غير واقعية، وأقل من معرفته الشخصية عن يسوع وتأملاته الطبيعية السهلة.

ثم كتب بحوثاً عن الأديان المقارنة، لكنه وجد أن ذهنه كان متعلقاً بالحدود الثلجية لجبال الهيمالايا.

لم يكن سندر صديقاً سهلاً. وكان زملاؤه الطلبة

يعتقدون أنه غريب وشاذ بطبيعته التى احتفظ بها، وبردائه الأصفر. بينما كان سندر يعتبرهم قليلى الخبرة.

وبالنسبة لما كان له من أنماط قاسية في السلوك والتكريس، فقد ظهروا أمامه أنهم عالميون. وكان أمله ضعيفاً في الكنيسة، عندما يصبحون رعاتها في المستقبل.

كان الفرق في المظهر والسلوك بين سندر وزملائه كبيراً، يحول بينهم وبين أن يفهموا بعضهم بعضاً. كما أن سمعته خارج الكلية زادته سوءاً بين زملائه في الكلية.

بيد أن هذا الوضع انتهى عندما حدث واقترب ذلك الشخص الذى كان يتزعم فئة المضايقين والمعذبين لسندر، وكان سندر جالساً تحت شجرة. لقد صدم الرجل عندما وجد أن سندر كان يصلى من أجله ويقول: «وإن كنت قد فعلت له شيئاً يؤذيه أو يغضبه منى حتى

يعاملنى بهذه الطريقة، فأرجوك يارب أن تسامحنى، واكشف لى عن خطيتى حتى أتجنبها». فتقدم الرجل، وقد انكسر قلبه من صلاة سندر، ووضع يديه على كتفى سندر، وصارا صديقين عزيزين، ولم تعد هناك أية مضايقة ضد سندر، ومع ذلك فلم يشعر بعد بالسعادة في ذلك المكان !..

وكانت الصدمة الأخيرة بعد إتمام الدراسة وحصوله على الشهادة، إذ عاد يتحدث عن أفكاره وآماله في التجول في أنحاء الهند لكى يوقظ الكنيسة. ثم كلمه كبير الأساقفة قائلاً: «عزيزى سندر، عندما تتم رسامتك في كنيستنا فإنك لن تستطيع التجول في كل أنحاء القطر، لأنك ستصبح مسئولاً عن كنيسة واحدة أو مجموعة كنائس، كما أنك لن تستطيع أن تترك أبرشيتك وتتغيب عنها مدة أربعة أو خمسة أشهر لكى تعظ هنا أو هناك. وأعتقد أنك تفهم ما أقول». فانزعج سندر وقال:

«لا أقصد هنا أو هناك، ولكنى أسأل بخصوص التبت؟». فأجابه قائلاً «إن التبت لا تتبع أحداً. وكيف تترك مكان خدمتك ـ أبرشيتك ـ لكى تفقد نفسك في التبت!».

كان يجب على سندر أن يفهم معنى السيامة منذ البداية، لكنه صُدم لأنه ظن أنه سوف يتمكن من الاستمرار في عمله رغم سيامته كاهناً، ولذلك فقد أعاد شهادته إلى الكلية، وأعلن أنه لن يقبل السيامة بهذه الشروط. ومنذ ذلك الحين استمر سندر يعمل حراً تماماً، مثل أى «صادهو» متجولاً حيثما شاء.

وخبرته في الكلية جعلته يشفق على كل خادم قد ارتبط بكنيسة محلية، إلا أن ذلك قد أكد له عدم توافق النظام الغربى للمسيحية في الهند، بيد أنه لم يكن هناك انقسام بينه وبين الكنيسة المنظمة آنذاك. وحيثما توجه كان استقباله بالترحاب والسرور، وبعد عشرة أعوام، كان العالم كله يرحب به، لأنه قدم بطريقة فريدة عن

حياة الكنيسة. وقد فضّل طريق «الصادهو» لأنه استطاع بذلك أن يقدم أكثر ما يمكن لوطنه الذى أحبه.

وفي الواقع لقد كان تأثيره في تلك الفترة عظيماً على تلاميذ الهند. وكان «سيسيل رودرا» من أعظم أصدقائه. وقد صار رئيساً لكلية القديس اسطفانوس في دلهى عاصمة الهند. وصار آخر مدرساً مشهوراً بنفس الكلية. وكان يُدعى «أندروز».

لقد قضى سندر وقتاً طويلاً في السفر في فصول الشتاء. وكان يمر بمدينة دلهى. وكان ينزل في بيت استفانوس. وكان هو أكبر زملائه الطلبة. وإن لم يتعد الخامسة والعشرين من عمره. وكانوا يستمعون إلى قصصه المثيرة عن التبت وفكرته العملية البسيطة عن الديانة. فكان تأثيره عليهم عظيماً جداً. وكثيرون صاروا فيما بعد قادة للمسيحية في تلك البلاد. وكانوا يسافرون في أجازاتهم لكى يقضوها مع الشاب «الصادهو».

كان صديقه «سيسيل» يكتب إلى سندر من حين لآخر ويخبره بما يحدث. وكانت أخباراً غريبة بالنسبة لتلك المجموعة من الطلبة الذين تعلموا نظاماً معيناً وكان من أمثلتها الآتى:

- «لقد قرر صموئيل أن يترك عمله في الحكومة وينضم إلى الخدمة في الكنيسة».
- «في يوم السبت أتم الشاب متى عشرين سنة في خدمته الاجتماعية».
- «قضى ثاوفيلس ثلاث ليال في تمريض أحد عمال النظافة الذى أصيب بالكوليرا. وأنت تعلم فكرة ثاوفيلس عن هؤلاء الخدم المنبوذين القذارى».
- «بالأمس حضر «أمريت سنغ» وهو يحمل رجلاً على ظهره. وكان قد التقى به على بُعد ميلين. وكان ملقى على الأرض يعانى من الطاعون. وكانت تلك شجاعة لا تُقدر».

لقد تعددت الأسماء، لكن الأحداث كانت حقيقية، وكانت كلها من تأثير ذلك الشاب ذى الثوب الأصفر، الذى كان يعد نفسه لرحلته إلى التبت خلال الصيف التالى، وكان عليه هذه المرة أن يمر بتلال «كايلاس».

(٨)
«المهاريشى»
في جبال كايلاس
(١٩١٢)

كان هذا هو تعليق الكثيرين من الناس، الذين استمعوا إلى مغامرات سندر، وقالوا: «لا نعرف بالضبط ماذا يعنى هو بكل ذلك؟، وما إذا كانت هذه القصص قد حدثت معه هو؟، لكننا نعتقد أنها غير حقيقية!».

كانت قصصه عن الـ «مهاريشى»، وعن إرسالية «صانيازى»، وهروبه من البئر في شرازار»، تبدو غريبة !...

وقد تكون بعض القصص التى قالها عن نفسه نوعاً من الإسقاط الذاتى لتخيلاته الشخصية، في وقت غيبة، أو ربما من تأثير الجبل نفسه، لأن سندر كان

حقيقـة رجلاً غامضاً. ومع ذلك فلم يتكلم إلا قليلاً عن مغامراتـه، التى يصعب تصديقها، وكان يفعل ذلك من أجل الإنجيل فقط.

بيد أننا نؤكد حقيقة سـفرياته المسـتمرة في أماكن بعيدة وغير مطروقة، وما أكده بعد ذلك آخرون من المسافرين، مما يؤيد الحقائق العجيبة التى كان سندر يختبرها.

فـي عـام ١٩١٢، بعد رفضـه للشـهادة التى حصل عليها، وعدم قبوله للرسامة، حدث معه الآتى...

لقد قرر أن يدخل إلـى التبت في ذلك العام من خلال طريق غير معهود، عبر سلسلة جبال الكايلاس المشهورة، ويمـر بمنطقة كان يعيش فيها آلهـة الهندوس القدامى، ثـم يصل إلى بحيرة على قمـة الجبال تعتبر أجمل بقعة في العالم. وهناك أيضاً، قيل بوجود رجال أتقياء قد تركوا العالم ليتفرغـوا للتأمل والصلاة، وأراد سـندر أن يقابل بعضهم أثناء عبوره إلي التبت.

لقد أخذه منظر المكان، ورغم أنه كان قوياً في تسلقه للجبـال، إلا أنه لـم يتمكن من مقاومة البـرد وتعثر في ثنايا الصخور وشقوقها، التى لم يبصرها من تأثير الثلج على عينيه، فسقط.

ولـم يعلم كم قضى من الوقت فاقـد الوعى، إلا أنه ارتعـب جداً من المنظر الذى شـاهده أمامـه عندما فتح عينيـه ورأى مخلوقاً ذا شـعر مجعد ووجه ذابل وجسـد داكن، فظنه وحشـاً مفترسـاً، لكنه تحقق أنه كان رجلاً عجـوزاً عندمـا تحـدث إليه، ثم قـدم إليه بعـض الأوراق الخضراء وأشـار له بأن يأكلهـا، فتناولها منـه بتردد، ثم مضغها، وإذا بالدفء يسـرى في عروقـه وقد تدفق فيها دمه، واستطاع أن يجلس ويتلفت حوله.

ثم تكلم الرجل فجأة، وكانت دهشـة سندر عظيمة عندما قال: «دعنا نصلى معاً».

فانحنــى ســندر على ركبتيــه بجوار ذلك الناســك، واستمع إلى صلاته العجيبة، التى انتهت باسم يسوع.

لقد تقابل سندر صدفة ليس برجل من رجال الكهف الأتقياء، بل بناسك مسيحى!

ربمــا كانت تلك رؤيا. وهناك قصــص كثيرة أخرى كان ســندر يرفض أن يكررها. والبعض منها قد تم نشره بدون تصريــح منــه. وإن كانت تبدو غريبــة إلا أنها كانت تحمل معانى صافية عن كتابات سندر العجيبة.

وأخبــره ذلــك القديــس العظيــم ـ أو المهاريشــى ـ أنــه يعيــش في جبال الكايــلاس منذ قرون، وقــد وُلد في الإســكندرية، وكان يبحث عن الســلام، حتــى التقى مع أحد الخدام كان قد جاء من الهند ليبشــر في مصر، وعن طريقه صار مسيحياً.

وعاد ســندر يســمع نفس الآيات التى غيرته من قبل

«تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال»، «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد»...

وقد رافق الرجل صديقه في رحلاته التبشيرية، واتجه المبشر إلى الشــرق، أما الرجل فقد استقر به المطاف في تلال الكايلاس، منذ ثلثمائة ســنة في حياة التأمل، وكان لا يأكل سوى الأعشاب.

وكدليل على هذه القصة، التى لا تصدق، فقد أحضر ســندر معه مخطوطاً باللغة اللاتينية علــى ورق الجلد، أخذه من كهف ذلك الرجل.

تلك هى القصة التى رواها سندر بعد عودته من التبت، وقال البعض إنه ليس هنالك تباين ملحوظ بين قصة ذلك الرجل وقصة سندر نفسه، فلم تتغير تلك الكلمات التى سمعها قبل تجديده، وكانت الرؤى والعلامات هى نفسها التى كان يستعملها سندر. كما أن القصة كلها لا يمكن

إلا أن تكـــون نتيجة الابتهاج الغامــر أو الإنجذاب الصوفى الذى كان يحدث لسندر.

وفي مناسبتين أخريين ذكر سندر أنه زار ذلك الرجل «المهاريشـــى». بيد أن أحداً لم يتعـــرف عليه ولم يهتد إلى كهفه.

ومن الجانب الآخر فقد ذكر مهندس أمريكى ومبشـــر مسيحى أنهما قابلا نساكاً قدامى مثل ذلك الرجل الذى يعيش في جبال الكايلاس.

وتوجد قصة أخرى تبدو أكثر احتمالاً. وهى عن إرسالية «صانيازى».

كان ســـندر يعـــظ إلى الســـائحين الذين ســـعوا وراء الغفران بالاســـتحمام في النهر المقـــدس في أحد الجبال. وهناك عند تلك المزارات المقدســـة التى يؤمها السائحون من كل مكان يســـتمع إليه بعضهم بشـــغف. ثم قالوا لـــه: «وإن كنـــا نحـــن لا نســـتطيع أن نجاوبك لكـــن يوجد

«صانيـــازى». وهـــو رجل تقى مثلك علـــى الجانب الآخر من النهر. وفي إمكانه أن يفحمك».

ولما تقابل الاثنان وجهاً لوجه وضع الرجل أصابعه أولاً في فم ســـندر. ثم وضعها بعد ذلك في فمه مشيراً على أن كلاهما كان يشـــابه الآخر. ثـــم أصغوا جيداً عندما بدأ الصانيازى يشـــرح لهم عن يسوع كما كان سندر يفعل منذ ساعة واحدة.

وبعدمـــا قضى تلك الليلة في خيمة ذلك الرجل على ضفاف النهر أدرك أنه ليس هو الصادهو المسيحى الوحيد الموجـــود في الهند. بل يوجـــد رجال أتقياء كثيرون في كل أنحاء البلاد ومَنْ يتبعَون يسوع في السر. وذلك منذ مئات السنين. وقد ذكر أولئك أن نظامهم قد تأسس بواسطة القديس توما نفســـه في القرن الأول الميلادى. وأن عددهم الآن يتراوح من عشرين إلى أربعين ألفاً.

ولما حضر معهم أثناء خدماتهم وجدهم يتعبدون في أماكن تبدو من الخارج مثل المعابد الهندوسية. وقد كانوا يمارسون الطقوس المسيحية، مثل المعمودية، والعشاء الرباني. لكن عباداتهم كانت شرقية وترانيمهم كانت قصائد شعبية هندية. ومتى صلوا كانوا ينبطحون على الأرض أمام المكان المقدس الذى كان يوضع فيه التمثال في المعابد الهندوسية.

ولما حاول سندر اقناعهم حتى يعلنوا عن مسيحيتهم، قالوا له إنهم يقدمون خدمة أعظم بواسطة تلمذتهم السرية للمسيح، وأن الناس يقبلونهم على أنهم «صادهوات» عاديون، وعندما يحين الوقت المناسب للإعلان عن أنفسهم يقودونهم نحو الإيمان الصحيح.

وكثيرون غير سندر، تقابلوا مع إرسالية صانيازى. وذكر «كارى» نفسه، في بداية الحركة الإصلاحية، في البنغال، أنه قد تقابل معهم.

قد تبدو هنالك مبالغة في حقيقة وجودهم بهذه القوة - من ناحية مسيحيتهم أو عددهم - لكن بناء على اختبارات سندر، يصعب الشك في وجودهم، لا سيما في الأماكن الأخرى المجاورة.

(٩)
الاعتقاد بموت سندر سنغ !
(١٩١٢)

تسلم ستة من أصدقاء سندر برقيات في يوم واحد. كانت كلها تحمل نفس الكلمات، ومرسلة من شخص واحد اسمه «سميث»، ومن مكان واحد . وكانت تقول: «إن سندر سنغ قد رقد في الرب».

بعد اختبار سندر مع «المهاريشي» وبعد اكتشافه إرسالية صانيازى السرية، توجه إلى مدينة «كلكتا» لأنه كانت هنالك طائفة تطلب إرسال خادم هندى مسيحى لكى يبشر وسط أربعة آلاف يدينون بالسيخية. وقد ظن أنه لا يوجد مَنْ يناسب هذه الخدمة أكثر منه هو شخصياً، لأنه كان سيخياً من قبل، وقد تعود على حياتهم القاسية، ويعلم عوائدهم!

بيد أنه في النهاية رفضت الحكومة الكندية أن تمنحه تصريحاً بالهجرة، فعاد إلى بومباى.

وأثناء عودته عاد يتذكر المرة السابقة، عندما فشل في محاولته للسفر إلى فلسطين، وكيف أن ذهنه كان مشغولاً بالتوجه إلى شمال الهند وأن تلك كانت أمنيته التى اشتاق إليها.

وعاد يفكر لماذا لا تكون حياته مثل حياة يسوع نفسه فإن للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكاراً، أما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه!

وقد رفض عن عمد أن يحمل معه مالاً، كما أمر يسوع تلاميذه. وقد تمم كلمته في حياته، فلم يحب أباً أو أماً أكثر من سيده. كما أن آلامه، وتجولاته، ورفض الناس له، كان مشابهاً لحياة سيده. وكانت كل أمنيته أن يشترك مع المسيح في آلامه، حتى أنه كان على أتم الاستعداد لقبول الاستشهاد. بل إن أصدقاءه المقربين إليه ذكروا كيف ساد

عليه حزن عميق لما تعدى عمره الثالثة والثلاثين ولم يمت بعد مثل سيده الذى أحبه بشدة!.

ولما اقترب سـنـدر من مدينة «هاردوار»، التى يقدسها الهنـدوس، اصطحب رجلاً إنجليزياً كان متجهاً مثله نحو الشـمال. وقد أخبره بأنه دكتور، لكنه اكتشف بعد ذلك أن تلـك الدكتـوراه لم تكـن لها علاقة بالطـب، بل كان كاهناً أكثر من أى شىء آخر.

وفي طريقهما أعلن سندر عن خطته. وقد أحس بأنه يجب عليه أن يتشـبه بسـيده قبل أن يبـدأ في خدمته. وذلك بـأن يصوم. ولم يكـن ذلك تقليداً أعمـى لما فعله يسـوع، لكنه اتخذ ذلك القرار من أجل يقظته الروحية، ومن أجل تقوية إحساسه بارتباطه بالله.

وقد حاول رفيقه أن يثنيه عن عزمه، لا سيما وأنه لم يعد في القوة الجسدية التى تمكنه من الاستمرار صائماً

لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، لكن سـنـدر صمم، وافترق الاثنـان. فما كان من ذلك «الدكتور» إلا أنه أرسـل سـت برقيات إلى أصدقائه كانت تحمل خبر موت سندر.

وانتشـر الذعر بين أصدقائه، وصدر النعى في الجرائد، وأقيمت الشـعائر الدينية في مدينتى سملا وكلكتا، وتم جمع المال لإقامة ما يخلد ذكراه. وبدأت الهند كلها تدرك مقدار خسـارتها الفادحة، بفقد ابنها، وانهالت الرسائل والبرقيـات والتليفونـات من كل مكان، بيـد أنه لم تكن هنالك إجابة واضحة!

كان الوقـت مبكراً لسـفر سـنـدر إلى التبت، وكان أصدقـاؤه يعلمـون الوقـت الـذى كان يبدأ فيـه رحلته الصيفيـة إليها. ولو أنه كان لا يزال على قيد الحياة لكان قد عاد من رحلته، وأوقف ذلك العناء والقلق بين أصدقائه، وتلك الأخبار على صفحات الجرائد.

وفجأة بــدأت الأخبار تصل عنه. فقــد حدث أن بعض الفلاحين قد وجدوا في الغابة رجلاً ملقى على الأرض يكاد يكــون ميتاً. فحملوه على قضبان من الخشــب، وأوصلوه إلى أحد الخدام المســيحيين. ولم يتعرف عليه أحد إلا بعد أن عثروا على كتاب العهد الجديد الذى كان يحمل اسمه. وكان يحتفظ به في ثوبه الأصفر البالى.

واســتمر ابن ذلك الخادم في ســرد القصــة وقال: لقد مرت أيام طويلة حتى اســتعاد سندر قوته. ولما اكتشف سندر أنه لن يتمكن من عد الأيام حمل معه أربعين قطعة مــن الحجر وكان يلقى بواحدة كل يــوم. وفي البداية كان في حالة من التأمل واليقظة. ولكن جسده بدأ يضعف. وأصبح عقله مشوشــاً. لكنه امتلأ سعادة وسلاماً ولم يقتــرب إليه أى حيوان. ولــم يتمكن في النهاية من إلقاء الحجارة واحدة بعد الأخرى.

ومهمــا كانت المدة التى صامها. فقد قال ســندر إنه

اختبر عن طريق الصوم حياة الانعزال عن العالم. والاتصال بالله. وتطهير النفس. والشــفافية الروحية. وقد منحه ذلك قوة جديدة طول حياته.

لقد كان قد بلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً. وكان يســهل عليه التأثير على الناس لما وصل إليه من شهرة فــي الهند وفي الغرب. إلا أنه لم يتغير قط. واســتمر في بساطة خدمته وتواضعه وحكمته. مما يؤيد أنه قد حقق لنفسه الغرض الذى قصده من صيامه.

ثم اســتعاد قوته بســرعة. لأن تكوينه الجســدى لم يكن عادياً. وقبل نهاية شــهر مارس بدأ يســتعد لرحلته الســنوية إلى التبت. وقــد حملت تلــك الرحلة في ذلك العام حوادث غير عادية حيرت أصدقاءه كثيراً.

فمنذ اليــوم الأول الذى عبر فيه الجبال لم يقبله أحد مــن القرويين. فكان مطروداً فــي البرد. وكان طعامه قليلاً. كما قذفوه بالحجارة وأساءوا معاملته. أما اللاما والكهنة

فقد حرضوا الفلاحين على اضطهاده. وقد أصبح واضحاً أن التبشير بيسوع في التبت يحمل معه الموت. ولأنه لم يكن يخشى الموت فقد نجا منه مرات كثيرة.

وانتهت هذه الرحلة المثيرة إلى بلدة تُدعى «رازار». وهي عبارة عن مجموعة من الأكواخ محاطة بمعبد حصين. وبدأ سندر يعظ في مكان السوق العام وينام ليلاً في مكان مكشوف. كان ينام فيه التجار مع حيواناتهم طلباً للدفء. وكان الناس في البداية يستمعون إليه بشغف. لكن بعدما وصل الخبر إلى اللاما الأعلى تحول ذلك الشغف إلى خوف وضغينة.

وفي الصباح ألقى حارس المعبد القبض على الصادهو، وحمله إلى قاعة الحكم، حيث كان يجلس اللاما الأكبر بوجهه المتجهم، ومن حوله وقف الكهنة المشعوذون، والأقنعة الشيطانية كانت معلقة على الجدران. وهنا أدرك سندر نهايته المحتمة.

كانت القساوة هي العلامة المميزة لأهل التبت. كما كانت وجوههم تعلن عن ديانتهم.

وكان المتهم إما أن يُوضع في كيس من جلد الثيران ويُترك في حرارة الشمس حتى يموت من الجفاف. أو يلقون به في بئر عميقة جافة. ليسقط على جثث الذين سبق إلقاؤهم في البئر. ويترك حتى يموت من الجوع أو من المرض.

ثم وجد سندر نفسه مقتاداً إلى البئر. وقام البعض برفع الغطاء، وتجمع كثيرون حوله. وكانوا يضربونه ويدفعونه إلى الأمام. وأخيراً ألقوا به في البئر. ولما سقط سمع صوت الغطاء يقفل ثانية. وكان المكان موحشاً ومظلماً ومملوءاً من عظام الذين ماتوا بنفس الطريقة.

لكن سندر صلى صلاة يائسة.

وكيف تكون النجاة؟! لقد كسر ذراعه. ولا توجد وسيلة للتسلق. وحتى لو تمكن من ذلك فإنه لا يستطيع

أن يخرج والبئر مغلقة والمفتاح مع اللاما الأكبر، ولابد أنه قد أعيد إليه ثانية ليحتفظ به في سلسلته تحت ثوبه.

ومرت الساعات، وأصبحت أياماً، ومرت ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولم يكن هناك فرق بين نور وظلام.

وفجأة سمع سندر صوتاً أعلى البئر، ومفتاحاً يدور والغطاء يُرفع، وبعد لحظات أحس بحبل يلمس وجهه وفي نهايته حلقة، فأدخل ساقه فيها، وأمسك بالحبل جيداً بذراعه السليمة، ثم أحس بأنه يُسحب إلى فوق، ولما صعد إلى الأرض سقط عليها، وملأ صدره من الهواء المنعش، ولما التفت حوله لم يبصر أحداً !!.. فزحف سندر في جنح الظلام، إلى حيث كان ينام مع التجار والحيوانات، ولما بزغ الفجر، اغتسل من رائحة الموت التى علقت به، ثم اتجه إلى السوق.

وبعد ساعة واحدة امتلأ السوق من الكهنة الذين حملوه ثانية إلى القاعة، ووجد سندر نفسه في مواجهة

اللاما الأكبر، الذى أغرقه بأسئلته المتكررة مثل: «مَنْ ساعد هذا الرجل على الهروب؟»، «هل هو رجل أو امرأة؟»، «وكيف عثروا على المفتاح؟»، وكان ذلك بالطبع أهم سؤال... «كيف عثروا عليه، وأين المفتاح الآن؟».

كان للبئر مفتاح واحد، وكان مع اللاما الأعلى، فأزاح رداءه عنه، وسحب سلسلة المفاتيح التى كانت معلقة بوسطه، وعاد يقول: «لا يوجد سوى مفتاح واحد للبئر،ويجب أن يكون هنا، فمَنْ الذى سرقه لكى يطلقك؟ كيف؟...».

وفجأة اكتسى وجه اللاما المنغولى بغضب بالغ، ونظر إلى الكهنة الذين وقفوا خائفين حوله، وصاح فيهم قائلاً: «خذوا هذا الرجل بعيداً... بعيداً عن المدينة... اتركوه يذهب... ولا تدعوه يطأ مدينة «رازار» ثانية!».

لقد كان المفتاح في مكانه في السلسلة!

(١٠)

في حصون البوذيين

(١٩١٤ ـ ١٩١٨)

لم تكن التبت هى الأرض الوحيدة التى كان التبشير فيها بالمسيح ممنوعاً أو خطيراً. لأن سندر سنغ المغامر قد تجول في أماكن أخرى مشابهة. وكان يثق أن الله قد أرسله خصيصاً إلى مثل هذه الأماكن الصعبة. والتى لم يصل إليها سوى القليلين من المبشرين المسيحيين. وأن الله سوف يهتم به ويعطيه شجاعة وتحملاً وسلاماً. بيد أنه لم يكن هنالك ضمان له من الخطر. أو حتى من الموت. وكان يردد ما قاله يسوع: «يكفى التلميذ أن يكون كمعلمه. والعبد كسيده» (مت ١٠:٢٥). وإننا متى تركنا هذه الحياة فلن تكون لنا فرصة بعد ذلك لنحمل فيها صليب المسيح. فيجب أن نحمله الآن بأكثر سرور.

لقد واجه الموت كثيراً حتى لم يعد يخاف منه. وقد تعقبه في الأدغال وفي الكهوف وفي الأكواخ حيث كانت الوحوش البرية تأنس إليه. كما هدده الموت في ثلوج جبال الهيمالايا وفي التبت. وكان يقول دائماً إنه لن يخاف متى أتاه الموت. وقال أيضاً: «من السهل أن نموت من أجل المسيح. أما الصعب فهو أن نحيا من أجله».

وفي الواقع لم يكن موته في ذلك الوقت من حياته أمراً سهلاً. ما لم يكن في غفوة تامة. لأنه كان طويل القامة وجسده كان قوياً. وقد تجلد تحت ظروف مختلفة. أما بصره فكان حاداً. وروحه كانت تشتعل في داخله. ولم يكن يتكل كثيراً على الأدوية أو الأطعمة. وقد تعلم كثيراً عن الغابات من الذين عاشوا فيها. ولم تكن حياته متنعمة.

أما قوة احتماله فكانت فائقة. ولم يبال بشىء

في سـبيل خدمة إلهه. وكانت قوته وشـجاعته تظهر في ثباته ورباطة جأشـه وقوة تحمله. وكان من صفاته الهدوء، والروح المرحـة، واهتمامه بحاجات الآخرين، وقوة تأثيره، مما جعل كل الناس يقولون عنـه إنه «الصادهو» الذى يشبه يسوع.

كان السـر وراء ذلـك هو مـا كان يفعلـه ـ مثل سـيده ـ في قضاء أوقات طويلـة في الهدوء والتأمل، قـد تصل إلى بضعـة أيام كاملة في بعـض الأحيان. وكانت حياته، كمتجـول، تعطيه فرصة أكبر للتأمل عندما كان يسير بمفرده.

كان من عادته أن يسـتيقظ مبكراً، ويبدأ يومه بقراءة فصل من الكتاب المقدس.

وقلمـا كان يتحدث عن حياته التكريسـية علناً، ولو أن أحاديثه كانت نتيجة طبيعية لحياته التى غلب عليها

التأمل والصلاة. وقـال مرة لأصدقائه: «إننى أقوم مبكراً، وأبـدأ بقراءة فصل من الكتاب المقدس، وأضع علامة على الآيات التى تحمل بعض المعانى. وبعد قراءة الأصحاح كله أعود إلى تلك الآيات، وأتأمل في كل ما يريد الله أن يقوله لى. أقضى حوالى ربع ساعة أركز فيها نفسى استعداداً للصـلاة. وليس لى وضع معـيّن أثناء الصـلاة، وقد أكون جالسـاً، أو راكعاً، أو واقفاً. لكنى لا أتكلم،بل أفكر فقط فـي الآيات التى قرأتها، وفي الأشـياء التى أتممتها أو أريد أن أتممها، سـواء من جهة الناس أو من جهة نفسـى، أو من جهة يسـوع. ومثل هذا التفكيـر كان صلاتى، وبهذه الصلاة كان الله الذى يتكلم وليس البشر».

كان الصادهو يخترق مرات متعددة وسط قمم جبال الهيمالايا وتلال مدينة سملا، وعبر الجليد الذى لا ينقطع، ووسـط الغابات والوديان الخصبة، لكى يصل إلى هضبة التبـت. وقد أصبح زائراً معروفـاً هناك، لكنه كان يتعمد

أن يبشر في معابد وحصون البوذيين. وقد حملت رحلاته قصصاً أخرى.

بينما كان يعظ في مكان السوق في إحدى المدن - كاتنزى - هجمت عليه جماعة ملأها الغضب، وأخذوا يضربونه حتى فقد وعيه، ثم لفوه في ملاءة، لم يظهر منها سوى رأسه وقدميه. وكان الجميع يريدون أن يلقوا نظرة على ذلك الرجل التقى الذى دخل إلى مدينتهم بردائه الأصفر وبدأ يبشرهم بإنجيل غريب. كما كانوا - مع كهنتهم - ينتظرون له الموت، سواء بواسطة الحشرات التى تمص دم الإنسان أو بواسطة الحيوانات المفترسة. ولكنهم في النهاية دحرجوه حتى أخرجوه إلى الغابة.

ولما استعاد وعيه أدرك ما حدث له، لكن جروحه كانت تؤلمه، وفمه كان جافاً. وحاول أن يحرك ذراعيه لكنه لم يستطع. ثم سمع من بعيد زئيراً على الجبل، وتخيل في ذهنه منظر أولئك الغاضبين من ردائه الأصفر ومن

تبشيره بالمسيح. فلا تنتظر أية مساعدة من أناس بهذه الصورة. ومن شدة آلامه عاد يفقد وعيه.

وأفاق مرة ثانية، وغسل وجهه. ولما حاول أن يمد ذراعيه فعل ذلك بحرية، والثمرة التى كانت تتدلى من الشجرة فوق رأسه سقطت واستقرت في يديه. أما جروحه فكانت مضمدة!.. وسمع من على بُعد زئير الأسد، وحفيف الأشجار من حوله. وكان من الصعب عليه أن يتبين في الظلام شخصين وقفا بجواره، وكانا مثل الخيال، ولما أخذاه بعيداً عن الغابة ظن أنهما ملاكان. وفي الواقع فإنه كان يعتبرهما كذلك لأنهما كانا قد أرسلا من قِبَل الله، وقد كانا سبب نجاته.

لكنه علم مَنْ هما، فقد أخبراه أنهما «تلميذان سرِّيان» وعضوان في إرسالية «صانيازى».

وفي مكان آخر تقابل سندر مع مجموعة من الشبان، قال رئيسهم: «نحن هنا كثيرون، نؤمن في الخفاء، وأعضاء

في إرسالية صانيازى، ذلك الرجل الذى سبق أن تقابلت معه. ونحن هنا نعد طريق الله». وقد كان له معهم حديث ممتع في ضوء القمر.

وكانت تلك الإرسالية سبباً في إنقاذ سندر في مدينة أخرى - «نيال» - حيث كانت الحصون البوذية منتشرة والمعابد متعددة في الوديان وعلى التلال.

وفي جبال افرست ترك سندر رفيقه من أهل التبت، وتوجه إلى قرية ممنوعة - الوم.

وكانت الأيام التى أعقبت وصوله إلى تلك القرية مليئة بالمتاعب، حتى إن سندر لم يتذكرها. وفي أول الأمر ألقوا القبض عليه وأودعوه السجن، وقد فرح هو بذلك لأنه تألم من أجل المسيح. وفي كتابه - العهد الجديد - الذى كان مكتوباً بلغة الأرو - وهى اللغة الوطنية الهندية - كتب هذه الكلمات: «إن حضور المسيح إلى سجنى قد حوله إلى سماء مباركة، فماذا تكون السماء نفسها؟!».

ولم يتوقف عن الترنيم طول الليل في زنزانته، كما كان يعظ من خلال قضبان نافذته الصغيرة إلى الناس الذين احتشدوا حوله وتعلقوا بكلماته.

أما الحراس - وقد تلقوا أوامر من سادتهم - فقد أخرجوه من زنزانته، ووضعوه على ألواح خشبية، وربطوا ساقيه، وقيدوهما وربطوهما إلى الألواح كما كانوا يفعلون بالمسجونين في الغرب. ثم سحبوه إلى مكان السوق، فتجمع حوله الناس وهم يصيحون غضباً، ولكنهم صمتوا عندما بدأ سندر يترنم بالتسبيح ليسوع.

أما الكهنة وقد ملأتهم الروح السادية - التلذذ في تعذيب الآخرين - فقد أمروا الحراس بضرب ذلك الأسير الممدد. وكان الناس يراقبون الحشرات التى زحفت إلى جسد «الصادهو» العارى لتمتص دمه، وانتشرت الجروح في كل الجسد مع الأطراف، ثم تورم في حرارة الشمس.

لكن سندر لم يتوقف عن الترنيم، وكان الناس يصغون بتعجب، ثم ألقوا به في الغابة وتركوه ليموت.

وفـي تلك الليلة حضر إليه حوالى سـتة أشـخاص. بعضهم من الرجال والبعض الآخر من النسـاء. وأنقذوه. وحلوا ربطه. وضمدوا جروحه. وأتوا به إلى مكان أمين.

ومـرة أخرى ذكر سـندر أن منقذيه كانـوا أعضاء في تلك الإرسالية المسيحية السرية «صانيازى».

(١١)

مرحباً بالخطر ، مرحباً بالموت ! ..

(١٩١٤ - ١٩١٨)

كل الذين استمعوا إلى سندر قالوا: «هذا مستحيل. ولا يمكـن تصديـق أقـوال هذا الرجـل. ولا شـك أنه كان يتخيل!».

ولأن خبرتـه فـي الحيـاة كانت واسـعة جـداً. وكانت رحلاته متعددة. لذلك كانت هناك فجوة كبيرة بينه وبين الآخرين. الذين قالوا عنه إنه «رجل خيالى».

بيـد أن كثيراً مـن قصصه. التى يصعـب تصديقها. قد قيلت بواسـطة آخرين غيره. أو تم تدعيمها بواسـطة شهود لا غبار عليهم.

حـدث مرة. عندما كان سـندر مسـافراً بالقطار من

بومباي متجهاً إلى الشمال. وفي نفس العربة، جلس شاب حاد البصر، شرير الملامح، وكان يتحدث مع أصدقائه. وادعى أنه ساحر، ولما هزأ به أحدهم نظر إليه، وقبل أن يتم حديثه نام تنويماً مغناطيسياً.

وتكلم سندر مقاطعاً الساحر مما جذب انتباه كل مَنْ كانوا في العربة. فنظر الساحر بعينيه الشريرتين إلى «الصادهو»، لكن سندر أحنى رأسه وصلى. واستمر الساحر لمدة نصف ساعة يتمتم ويزبد. ثم أعلن أن الرجل التقي ـ سندر ـ يحمل معه كتاباً يمنع السحر عليه. فأخرج سندر نسخة من إنجيل يوحنا ووضعه على المقعد.

وعاد الساحر إلى محاولته، لكنه عاد يعلن أن الصادهو يحتفظ بورقة واحدة من ذلك الكتاب في جيبه. وقد كان ذلك صحيحاً. فأخرج سندر الورقة من جيبه ووضعها فوق الإنجيل. وعاد الساحر إلى محاولته، ولكن بدون نتيجة.

وأخيراً أعلن فشله. وعندئذ انتهز سندر الفرصة ووقف وتكلم عن القوة التى هى أقوى من السحر، والتى تكمن في ذلك الكتاب... وبشرهم بيسوع.

وكانت قوته على الحيوانات عظيمة، مثل قوته على البشر. أما أصدقاؤه الذين شاهدوا قدرته على الحيوانات البرية، فلم يجدوا صعوبة بعد ذلك أن يصدقوا أنها لم تضره قط.

كان مرة مع صديق له في تلال مدينة سملا. وبعد العشاء، وقد انتهى حديثهما، تحرك الصادهو بهدوء واتجه نحو الأشجار التى كانت تحيط بحديقة المنزل، ووقف هناك، وأخذ يحملق نحو الأضواء البعيدة الخانقة التى تنبعث من القرى المحيطة.

وفجأة وقف صديقه فزعاً في شرفة المنزل، من المنظر الذى شاهده، لأنه رأى نمراً يزحف ببطء بجانب الحديقة، وقد امتد ذيلة وكادت بطنه تلمس الأرض. ثم

توقف وحملق نحو الصادهو الذى كان يقف ساكناً. ثم بدأ النمر يتحرك نحوه. أما الرجل الصديق فلم يعرف ماذا يفعل. فإذا صاح فإن النمر سوف يقفز. كما أنه لا يستطيع الانتظار هكذا صامتاً.

لكن الصادهو التفت بهدوء ونظر إلى النمر. ومد يده نحوه. فنهض وتحرك. ثم وقف بجانبه. وعندئذ وضع سندر يده على رأس النمر كما لو كان يفعل ذلك مع حيوان أليف!!.

فهدأت أعصاب الرجل. إذ لم يعد هناك مجال للخوف.

واستمر النمر يهز ديله. ويرفع رأسه من حين لآخر. حتى انتهى سندر من تأملاته. ثم اختفى ذلك النمر بعيداً بين الأشجار.

لا تساؤل بخصوص مثل هذه المغامرات. فقد شهد

عنها كثيرون. كل منهم على حدة. أما سندر نفسه فلم يتكلم عنها.

وبالنسبة إليه. كانت كل هذه الأمور عادية في الحياة اليومية لرجل مثله.

وماذا كان السبب في نجاته. ومناعته ضد الأخطار. وسلطانه على الناس الأشرار والحيوانات البرية؟

كان البعض يقولون إن ذلك كان يرجع إلى هدوئه. وثقته. وبُعد نظره. وقال البعض الآخر إن السبب ؛كان يرجع إلى خبرته العميقة بالطبيعة. وحياته وسط التلال والغابات.

أما سندر نفسه فكان يعلن عن حماية الله له. والقوة التى كان يمنحها له. ولكل الذين يثقون فيه.

لقد اعتمد سندر على الله في طعامه. وماله. وحمايته. وإرشاده.

أما رحلاته فلم تبين أن الله كان يمنعه من الدخول في تجارب، أو يبعد عنه الاضطهاد والتعذيب. لكنه كان يقول دائماً أن الله حفظ مواعيده معه وأنقذه من الشر، وبهذا الإيمان استطاع أن يواجه كل شيء.

ولم تمر أية فرصة لم ينتهزها سندر للتبشير بالإنجيل، وكان يتكلم ببساطة وقوة، وكانوا يفهمونه بسهولة. أما الإيضاحات التى كان يستعملها، فكانت من الكتابين اللذين أجادهما، وهما الكتاب المقدس، والطبيعة.

ومن أقواله: «في كل بيت من بيوتنا يوجد العنكبوت، لكن معظم السيدات يحطمن خيوط العنكبوت دون تحطيم العنكبوت نفسه، وهذا ما نفعله عندما نحاول التخلص من الخطية».

وأثناء مروره في جبال الهيمالايا، عبر في مكان كانت تنمو فيه بعض الأعشاب، تجعل كل مَنْ يشمها ينام، ومرة أخرى أعطاه أحدهم أعشاباً أخرى ليشتمها،

بيد أنه لم يتأثر بهذه أو بتلك، وكان سندر يعزو ذلك إلى قوة الصلاة. ولما سأله أحدهم قائلاً: «كيف يمكن لصلاتى الضعيفة، أن تعين الآخرين، طالما أنى خاطىء؟». فقال: «إن الشمس تجعل مياه البحر المالحة تتبخر، لكن عندما تسقط ثانية على الأرض فإنها تكون نقية وصافية وصالحة للشرب، لأن الشمس قد طهرتها. وهكذا يفعل الله مع صلواتنا».

كانت تلك هى طريقته في الحديث مع كل الذين استمعوا إليه، في كل أنحاء الهند، سواء في الطريق، أو في السوق، أو في القطار، وهكذا كان يقودهم إلى المسيح.

كان يقول: «إن المسيحى هو ذلك الإنسان الذى وقع في حب المسيح».

(١٢)

القوة والمجد

(١٩١٨ ـ ١٩١٩)

في بداية عام ١٩١٨ أصبح سندر سنغ من أشهر المتدينين في الهند، وذاع صيته، ليس بين المسيحيين فقط، بل وسط الفئات الأخرى. وكان يتميز ـ من بين الرجال الأتقياء الآخرين ـ بنظافته، ونقاوة عينيه، ومشيته المتأنية المتئدة. وأخبار رحلاته الجريئة في الأماكن الممنوعة كانت تبهر الذين لم يسمعوا أو يقرأوا شيئاً عن تعاليمه الدينية.

وفوق الكل، كانت رسالته محل توقير واحترام من الجميع. ولما بلغ الثلاثين من عمره، ذاع صيته في كل شبه الجزيرة الهندية. ومتى عرف الناس أنه سيتحدث في مكان ما، كانوا يهرعون إليه ويملأون الشوارع، أو الأماكن العامة.

وعند عودته إلى تلال سملا ـ بعد رحلاته في التبت ـ كانت تنتظره تلال من الخطابات كانت معظمها من أصدقائه، لكنها أصبحت فيما بعد من آخرين يطلبون إليه أن يمد دائرة خدمته للكرازة في بلادهم.

لقد تشاور الصادهو مع أصدقائه المقربين إليه في مدينتى سملا ودلهى، حيث أصبح جلياً أنه لا يستطيع أن يستمر في رفض هذه الطلبات، وأن رسالته يجب أن يسمعها كل مَنْ في الهند. وقد قام الذين كانوا معه في الشمال بدور فعال ومهم جداً في حياة الكنيسة المسيحية هناك.

وكذلك الطلبة الذين تخرجوا في كلية القديس استفانوس في دلهى الذين كان سندر زميلاً لهم منذ عشر سنوات مضت، قاموا بقيادة الكنيسة الهندية، في الطريق الذى أراده لها الصادهو ـ ألا وهو عدم الاعتماد

علــى الكنيســة الغربية والتعبيــر عن الإيمــان والعبادة بطريقة وطنية محلية.

وظهر واضحاً صواب فكر ذلك الشــاب الصغير. الذى فضّل حياة الحريــة والخطورة التى يعيشــها «الصادهو» على حياة الأمان والثبات لخريجى كليات اللاهوت...

لكــن أصدقاءه عادوا يخافون مــن خطر آخر محتمل. فمنذ عشــر ســنوات، عندما بــدأ أول رحلة إلــى التبت، وســمعة ســندر تزداد اتســاعاً. أفلا يقوده ذلك أخيراً إلى الكبرياء؟ وهنا تكون الطامة الكبرى!

أمــا الذين اختبــروه عن قرب فلم يخشــوا عليه من تلك التجربة، لأنهم عرفوه مسيحياً بسيطاً، يبتعد عن البشــر، ويلتجىء إلى الرب يسوع باتضاع كامل ومحبة منكرة لذاتها.

وفي الواقع لم يكن العالم يعنى شــيئاً بالنسبة له. كمــا كان يعيش فــي روحانية داخلية عجيبــة. وكان له

الإحســاس الدائم بحضور الله معه. ولذلك كان يتضايق من الإحساس بالمادية التى كانت تسيطر على سامعيه.

وفــي بدايــة عــام ١٩١٨ توجــه إلــى الجنــوب. وعقد اجتماعاته الأولى في مدينة «مدراس». وكانت مشــكلته في اللغة، لأن لغة الشمال ـ وهى لغته ـ تختلف عن لغة الجنوب. فاســتعان بمترجم، ورغم ذلك فقد كانت كلماته تحرك السامعين بقوة.

ومن هناك تجول من مدينة إلى أخرى، وكانت ســمعته تســبقه فــي كل المراكــز المســيحية. وكان يتحــدث في الصباح مع المرسلين، والخدام، والمعلمين، والقادة، وكان يقود اجتماعات لدرس الكتاب، وأخرى للشهادة أو للعبادة.

وكان الناس يتجمعون في الطرقات، وفي الميادين أمام المعابد المختلفة، وتحت نخيل البالميرا ـ وهو نخل ذو سعف مروحــي جميل المنظر ـ وكان يصــل عددهم ٥٠٠ وأحياناً ١٠٠٠ شــخص.

وكل اجتماع كان يعقبه أسئلة ومناقشات. هذا بخلاف المقابلات الشخصية من أجل المشاكل الخاصة.

وفي كل مدينة كانت تحدث نهضة. وينضم إلى المسيحية مئات من الباحثين عن الحق.

ولم يتعود الصادهو على تلك الاجتماعات المتعاقبة. ثم إنه لم يسر من إحساسه بأن كل ما كان يختص به أصبح منظماً. وتولى آخرون وضع الخطط له. وقد أثر ذلك على وقته الذى كان يتمتع فيه بالقراءة والتأمل في الكتاب المقدس.

ثم وجد نفسه مضطراً لتلبية الدعوة لزيارة سيلان. تلك الجزيرة الجميلة ذات الخضروات الوفيرة وبقايا البوذية. مع أناسها وطلبتها المشتاقين.. وهناك أحس سندر بقوة جديدة. فقد طلبوا منه زيارة ولد صغير يُدعى وليم. كان يرقد في المستشفى. فذهب إليه وصلى بجواره من أجل شفائه.

وفي الصباح التالى قام الولد من فراشه معافى. وسط دهشة جميع العاملين بالمستشفى. وكذلك المسيحيين هناك. ومن ثم انتشرت الأخبار في المدينة. وفي كل الجزيرة. ثم في الهند. بأن «الصادهو» له موهبة الشفاء.

كان يعلم أن له تلك الموهبة منذ مدة. لكنه الآن صار يرفض أن يلتفت حوله طالبو الشفاء سواء لأنفسهم أو لذويهم. وإن كانت له الموهبة لكنه لم يكن يحب أن يستعملها. لأن الناس سوف يطلبون الشفاء دون سماع كلمة الله. وبذلك تصبح الموهبة معطلاً وليست مكملاً لرسالته. وترك سيلان. طلباً للراحة. ثم قضى وقتاً في منزل الشاعر الهندى المشهور «طاغور».

وكان الجميع من الديانات الأخرى في الهند. يقبلون

بسرور إنجيل المسيح الذي قدّم إليهم بطريقة تقليدية هندية. ولم يعودوا إلى البوذية أو الأرواحية ـ مذهب حيوية المادة ـ كما كان في أرض الشمال. ولم يعد هناك اضطهاد بل احترام عميق حيثما ذهب.

وفي ربيع عام ١٩١٩ عاد الصادهو من رحلته في التبت حيث واجه الموت. وبدأ في مجموعة أخرى من الرحلات.

وبعد فشله في السفر إلى كولومبيا وإلى فلسطين اتجه شرقاً إلى بورما. ومنها إلى الملايو. وسنغافورة. ثم إلى الصين. وأخيراً إلي اليابان.

وظل مميزاً بردائه الأصفر. وبوجهه البسام. وبقوة شخصيته. واستطاع أن يتغلب على مشكلة اللغة في معظم الأماكن. ولكنه انزعج جداً عندما كان في سنغافورة ولم يجد مترجماً واحداً له. فصلى صلاة حارة وبدأ لأول مرة في حياته يتكلم باللغة الإنجليزية علناً.

ولكنه من ذلك الوقت فصاعداً. صار يتحدث بالإنجليزية. في كل اجتماع يعقده خارج الهند.

وعاد أصدقاؤه يخافون عليه من تلك الشهرة العالمية. وكانت طريقته بالنسبة لأهل الشرق مثل الرب يسوع نفسه.

لكن ألا توجد الآن أدنى خطورة عليه. لو أن الناس بدأوا يتعبدون له؟!.

لقد أخطأوا عندما فكروا أن الصادهو أعظم من أن يجرب بتجربة الكبرياء. وأن اتضاعه يعطيه حصانة ضد ذلك. كما أخطأوا عندما خافوا عليه من السقوط في الكبرياء.

لقد حارب الصادهو معركته منفرداً. عندما كان في أدغال الجنوب. وقد أخبر أصدقاءه بما حدث فيما بعد. وبطريقته العجيبة المعتادة.

كان وحيداً في تأملاته عندما تقابل مع رجل نبيل كان يشبه الكاهن، وقد تحدث إليه، وقال له الرجل إن الصادهو كان الرجل الذى تبحث عنه الهند كلها، وقد أثبت قدرته في جذب الآخرين إليه من كل عقيدة، كما استطاع أن يبرهن على وجود بصيص من نور الحق، في كل عقيدة، وكان أول مَنْ اكتشف طرقاً كثيرة تؤدى كلها إلى الله، والإمبراطور الأكبر قد أقام معبداً لكل الأديان منذ أربعمائة سنة، ثم كان مؤسس ديانة سندر «السيخية»، والآن قد أتى الوقت لكى يقوم نبى آخر، ليجذب إليه كل الهند، وكانت الحاجة إلى معلم يستطيع أن يجمع أفضل ما وُجد في هذه الأديان، وقد كان يسوع، بديانته الجديدة، أعظم إعلان عن الله، وأن الصادهو سندر سنغ هو النبى الذى حمل هذه الرسالة، وسوف يسجل له التاريخ أنه كان أعظم من سابقيه من الأنبياء...

وتطلع سندر إلى وجه ذلك الرجل النبيل، ولاحظ بريق الخداع في عينيه، وعرف أنه المجرب الشيطان نفسه.

أما الذين سمعوا هذه القصة فقد تحيروا ما إذا كان هذا «الرجل النبيل» له وجود حقيقى كإنسان، لكنهم أدركوا أن الصادهو بطريقته الخفية قد دخل معركة مع نفسه، أو مع كبريائه، لكنه خرج منها منتصراً ظافراً.

(١٣)

خلف الباب الممنوع

(١٩١٩)

«ما هو موعد رجوعك المحتمل يا صادهو؟».

كان هذا هو السؤال الذى يسأله أصدقاؤه له قبل سفره إلى التبت.

وفي كل مرة كانت الإجابة واحدة.

كان سندر يرتب أموره على أساس أنه لن يعود. فلم يكن هنالك رصيد في البنك. ولا أقارب حتى يخاف عليهم. وقد تعود أن يعود من رحلته في نهاية فصل الصيف. لكنه كان يقول دائماً لأصدقائه: «إنى لا أتوقع أبداً العودة من التبت».

ولم يشعر أبداً بالحزن من جهة الموت. وقد انتقلت

إليه روح الاستشهاد من جنسه. وتحولت إلى الصليب الذى كان مستعداً لحمله كل أيام حياته. كما كان يرحب بالموت في أى وقت.

أما الشىء الوحيد الذى كان يحزنه فهو عدم مصالحته مع أبيه. وكان أبوه «شير سنغ» لا يزال حياً في قريته «رامبر». وقد تقدمت به الأيام. لكنه ظل رجلاً قوياً.

كان سندر يزور قريته من حين لآخر. وقد بدأ الناس يتقبلونه بالاحترام. بعد الرفض الذى لاقاه من ذويه وأهله. وحتى إن لم يرحبوا به. لكنهم كان يحتملونه. كما أنهم كانوا يفخرون به وبالشرف الذى لحق بقريتهم بسببه.

بيد أن الحاجز القديم ظل قائماً بينه وبين أبيه. بين ردائه الأصفر وبين ذلك الرجل السيخى «شير سنغ».

كان سندر يتسلق جبال الهيمالايا عاماً بعد عام.

ويعود قبل سقوط الثلج، ويتمنى أن تتاح له فرصة اللقاء مع أبيه العجوز.

لكن احتمال الاستمرار هكذا بدون مصالحة حتى الموت قد تأكد لدى سندر عندما علم بقصة «كارتر شنغ» واستشهاده.

تقابل في إحدى شوارع التبت مع رجل كان الناس يحترمونه بشدة، وكان واحداً من القلائل الذين بشروا بشجاعة عن يسوع في تلك الأرض المعاندة. وكان ذلك الرجل يشغل منصب سكرتير اللاما، لكنه تأثر بحياة أحد المرسلين المسيحيين فصمم على اتباع يسوع.

وكان أول مَنْ عرف ذلك هو اللاما نفسه، وكان بوذياً متعصباً وجاهلاً. وبعد أيام قليلة حكموا عليه بالموت، فوضعوه في كيس من جلد وتركوه في الشمس حتى يجف وينكمش عليه الجلد فيموت.

وعندما لم يمت بسرعة كما توقعوا له عادوا يكوونه بالقضبان المحماة في النار، ثم أخرجوه من الكيس وجروه على الأرض في الشوارع. وبالرغم من هذا التعذيب الشديد - وكان الموت متوقعاً له نتيجة للتقيح والتسمم الدموى، أو نتيجة للجوع والتعرض للجو - لكنه لم يمت، بل عاد ثانية إلى المدينة لكى يبشر.

ولما سأله سندر عن كيفية إيمانه بالمسيح، أجاب الرجل أنه كان بسبب شهيد آخر مات بنفس الطريقة، وفي نفس المدينة، وقبل موته بحوالى ساعة واحدة طلب من الواقفين حوله أن يخلوا له يده اليمنى، وبينما كان في شدة الألم مد يده وأخرج كتاب العهد الجديد وكتب عليه رسالته الأخيرة هكذا: «إن الحياة التى أعطانى إياها الله ها أنا أقدمها له».

ثم اكتشف الصادهو أن ذلك المرسل الشاب الشهيد

الذى كانت له هذه النتائج الملحوظة كان هندياً وسيخياً مثله من البنجاب. ويُدعى «كارتر سنغ». وقد تربى في بيت غنى، لكنه ترك عائلته واخترق جبال الهيمالايا ليبشر سكان التبت المخيفين.

وعاد سندر إلى البنجاب. وبحث عن منزل والد هذا البطل. وكان أبوه لا يعلم عنه شيئاً منذ سنوات. ولما أخبره سندر عن شجاعة ابنه وتأثر حياته وموته انكسر قلب أبيه. ثم مد يده المشوهه وتعلق برداء سندر الأصفر. ولمست أصابعه كتاب العهد الجديد الذى كان يحمله باستمرار. وقال، بعد أن امتلأت عيناه بالدموع: «وأنا أيضاً أؤمن بيسوع».

ثم ترك سندر ذلك البيت الفخم وتجول في الصحراء. وفكر أنه في مثل هذا البيت يسكن أبوه. وهو يشبه ذلك الرجل السيخى الفخور بنفسه. أفلا يمكن إذاً أن يسمع من أبيه تلك الكلمات نفسها التى قالها ذلك الرجل ؟!

وفي عام ١٩١٩ بلغ سندر الثلاثين من عمره. وكان قد زار التبت اثنتى عشرة مرة أو أكثر. وكان اللاما ينقلون قصته وتبشيره في رحلاته المتكررة. وقد كان لا يتأثر بالتهديد - كما لو كان محصناً ضد الموت - فأرسلوا إلى حدودهم حتى يمنعوه من الدخول. كما أخبروا السلطات البريطانية بأنه زائر غير مرغوب فيه. فكان سندر يختار طرقاً أخرى مناظرة يستطيع أن يدخل منها. وكذلك أثناء العودة. وبالرغم من كل ذلك لم يمض عام بدون رحلة صيفية تبشيرية هناك.

لم يكن يهتم أبداً بالمعوقات فإنه حتى في فصل الصيف كانت الطريق محفوفة بالمخاطر. وكثيرون من متسلقى الجبال أو من الثيران أو من الجياد سقطوا على التلال. وكانت العواصف الثلجية التى تحدث في غير أوانها تسد كل الطرقات. وكان البرد قارساً، حتى في أيام الصيف. ولم يلبس سندر قط نعالاً في قدميه. ولم يكن

له سوى الرداء الأصفر القطنى لحمايته. وقد كان يتمتع بقوة جسدية هائلة، ومدعماً بقوة روحية فياضة.

وحدث مرة، بعد أن رأى جثث المسافرين الذين ماتوا من البرد، إذا بعاصفة ثلجية تهب عليه مع رفيقه من أهل التبت. وفي البداية لم يتمكنا من الرؤية، واضطرا أن يركعا. ولكنهما تمكنا بعد قليل من التقدم في اتجاه ضد الزوبعة. وكانت العاصفة تشتد بين الحين والآخر، ثم تهدأ قليلاً. وعندئذ اكتشف سندر أنهما كانا على حافة منحدر شديد يبلغ عمقه حوالى ثلاثين قدماً، وشاهد في أسفله رجلاً كان قد سقط فيه !!..

فطلب من رفيقه أن ينزلا معاً لإنقاذ الرجل، لكنه رفض، وقال إنه يريد أن يعود إلى بلدته سالماً. أما إذا كان سندر المسيحى تقياً وغبياً في نفس الوقت لكى يضحى بحياته فليفعل ذلك بمفرده. وعاد يقول: «أما أنا فسوف أنقذ نفسى».

أما الصادهو فهبط على حافة الجبل المنحدر إلى أسفل، ووجد أن الجسد الملقى كان لا يزال حياً، فحمله سندر واتجه به إلى «رابخت»، حيث كانت نهاية رحلته. وقد كان الرجل مجروحاً، ويكاد يتجمد من البرد. وكان سندر يعلم أنه لو سقط مع الرجل لماتا حالاً وسط الزوبعة. وكانت الطريقة الوحيدة لهما للنجاة هى الاستمرار في الحركة بقدر المستطاع.

وبالقرب من «رابخت» بدأت العاصفة تهدأ، ولاحظ كلاهما في لحظة واحدة جسداً ممدوداً على الأرض! وكان هذا الجسد لرفيقه السابق من أهل التبت، وقد مات وغطاه الثلج إلى نصفه. وهنا تذكر الصادهو كلمات الكتاب المقدس: «مَنْ وجد حياته يضيعها، ومَنْ أضاع حياته من أجلى يجدها» (مت ١٠:٣٩).

وفي طريقهما إلى داخل «رابخت» تحدث سندر مع الرجل عن قصة يسوع العجيبة، وكيف أنه بذل حياته من أجل حياة الآخرين.

وبغض النظر عما وصل إليه سندر في التبت، فإن رحلاته السنوية إليها قد أعطته شهرة عظيمة في كل أنحاء الهند. بالإضافة إلى أنها قد حركت الكنيسة الهندية، وهذا ما كان يهتم به أكثر، حتى تتحمل مسئولياتها وخدماتها الجديدة.

وفي عام ١٩١٧ بعد عودته وجد خطابات كثيرة تطلب منه زيارة جنوب الهند، وفي عام ١٩١٨ كانت هناك طلبات ملحة لزيارة الشرق الأقصى، وقد قبل الدعوتين كلتيهما.

وفي عام ١٩١٩ كان هناك اقتراح لزيارة الغرب، مثل بريطانيا وأوربا وأمريكا، وقد يبدو أنه لم يحدث في عام ١٩١٩ ما هو أهم من تلك الطلبات من أجل زيارة الغرب للتبشير هناك.

كان سندر يتوق لزيارة بريطانيا وأمريكا، لكن لم يكن يتوفر له المال اللازم لذلك، كما أنه لا يستطيع أن يستخدم

المال المخصص في مدينة «سملا» لرحلاته السنوية إلى التبت في غير مكانه، وكل ما قاله هو أنه إذا كان الله يريده أن يذهب فسوف يدبر الوسيلة المناسبة.

ثم حدث شيء عجيب.

بعد عودة سندر من مخاطر التبت جلس مع أبيه شير سنغ في تلك الشرفة المألوفة، وكان القمر بدراً، وقد أضاء من حولهما الأشجار الممتدة على الأرض. ومن وقت لآخر كان يصدر صوت من طائر أو من حيوان. ثم علت صفارة القطار السريع الذى كان يصل دائماً في الليل.

وهنا تحركت ذاكرة سندر، ففي ليلة مثل هذه، بل أكثر برودة، وبينما كانت صفارة القطار تطن في أذنيه، كان قد قرر أن ينهى حياته ما لم يتمتع بسلام قبل الفجر، وفي مثل هذه الليلة أتى إليه يسوع وتحدث معه منذ خمسة عشر عاماً.

وعاد يتنبه عندما امتدت يد أبيه نحوه وأمسك

بثوبه الأصفر وقال له: «يا ابنى، لقد بدأت أنا أيضاً أحب يسوع» !..

ثم تحدثا طويلاً في الليل، وقبل أن يدلفا إلى النوم توقف شير سنغ وقال: «يا ابنى، إذا كان الله يريدك أن تذهب إلى إنجلترا أو إلى أمريكا فإنى سوف أمدك بالمال اللازم، وربما أعوضك بذلك عما مضى».

(١٤)

الوثنية في الغرب

(١٩٢٠ - ١٩٢٢)

كانت تقدمة الشكر لله، التى قدمها «شير سنغ» العجوز، تأكيداً للصادهو حتي يقبل الدعوة لزيارة الغرب.

وفي يناير ١٩٢٠ أبحر إلى مدينة القاهرة، ومنها إلى إنجلترا.

وكان واضحاً أن منظره سوف يكون غريباً، لكن هذا الإحساس صار مؤلماً في إنجلترا وأمريكا. فلم يكن يعتقد أنه سوف يكون هكذا غريباً في مظهره. وكان الحل هو أن يهمل رداءه الأصفر، ويرتدى الملابس الأوربية، وهذا ما رفضه بإصرار. وكانت نظرات الشفقة لا تنتهى على ذلك التلميذ الذى يتحمل هكذا من أجل إرساليته!

أمــا أن لــه إرســالية في الغرب فهذا ما لــم يشــك فيه قط. وكان أمله أن يجد بريطانياً بلداً مسيحياً، لكنه اكتشــف أنها الأرض التى لا تذكر الله، والتى حلت فيها المادية مــكان الروحانيــة العميقة الموجودة في الشــرق، والقارة كلها، وكذلك أســتراليا، كانــت حالتها الروحية سيئة، وقد توقع أن تكون أمريكا أسوأ حالاً.

لقد بقى أولاً في أكسفورد ولندن، وحيثما توجه كانت الجموع تتزاحم حوله، ثم نشرت قصته في الجرائد، لكنها لم تخل من العطف عليه وعدم فهمه.

ومــن تأثير الضغط عليه من أصدقائه، قَبِلَ أن يرتدى حــذاء ومعطفــاً، لكنه رفض ذلك بعد قليــل، وأعلن أنه بعــد مرارة جبــال الهيمالايا فإن بريطانيــا لا تعتبر باردة بالنســبة له. وكان يحــاول دائماً تجنب ركوب الســيارات العامة، أو القطارات، أو الترام، لأنه وجد أن ســرعة الناس وتلهفهم على الحياة قد سلب منه روحه، ولم يتمكن من

التأمــل الذى تعود عليه. ولم يصدق أن هذه الجموع، التى تبحــث عن المال والأمان والعمــل، لها نفس الجوع الروحى مثل الشعوب الشرقية.

وفي أمريكا كان أكثر اســتياء، فحالما وصل تم تنظيم مجموعــة حولــه، كان هــدف القائمين عليهــا هو جمع أكبر قدر من المال لأنفســهم ولســندر نفسه، من خلال اجتماعاتــه العامــة. ولم يكــن لهذا التنظيم أى شــأن بخصوص الكنيســة، وكانوا يتوقعون أن يســمعوا منه نفس الأخبار الطيبة التي كان يحملها في الشرق.

بيد أن ســندر وجد أنه لا يســتطيع أن يفعل ذلك في الغرب!.. لقد كانــت الهند دولة متدينة، أما الغرب فكان يختلف، لا ســيما من النواحى الروحية، وكانت رســالته هى أن يظهر الحقيقة لهم كما رآها هو.

وقــد خاب ظن مئــات من الناس فيه، بســبب الاتهام الصريــح ضدهــم من ذلــك «الرجل التقى من الشــرق».

والـــذى يبلغ الثلاثـــين من عمره. وقد اعتبـــروه أنه لا يعرف شـــيئاً عن متاعب الحياة الصناعيـــة. والضغط الذى يقع على رجال الأعمال في العصر الحديث.

ومع ذلك فقد تأثر آلاف الســـامعين برســـالته الجريئة. التى قدمها بطريقة مهذبة.

وقال مرة لســـامعيه: «لقد وجـــدت قطعة من الحجر في إحدى المســـتنقعات في جبال الهمالايا. ولما كسرتها وجدتها جافة جداً من الداخل. وهكذا أنتم هنا في الغرب. ولكـــم الآن قـــرون في أحضان مياه المســـيحية لكنها لم تدخل بعد إلى قلوبكم».

لم يستطع أى فرد من السامعين أن يظل صامتاً وهو ينظر إلى عينيه البراقتين. ولون بشـــرته الزيتونى. ولحيته الســـوداء. وصوته الحاد. عندما كان يعلـــن قائلاً: «في يوم الدينونة ســـيكون حال غير المســـيحيين في الشرق أكثر احتمالاً مما لكم أنتم الذين في الغرب. لأنهم لم يسمعوا

قط عن الإنجيل. أما أنتم فقد كانت لكم الفرصة لكنكم لم تســـتفيدوا منها». بل كان يكرر كلمات السيد ويقول لهـــم: «تعالـــوا إلىّ يا مَـــنْ تثقلتـــم بحمل الذهـــب. وأنا أريحكم».

لقد تحدث إلى القادة المســـيحيين في «كانتربرى». عن «الطبقة المنغلقـــة» - وهى إحدى الطوائف الوراثية عند الهنـــدوس وتقوم على التفرقة بين الطوائف - في الهند. وكذلك عـــن نفس الطبقـــة التى وجدها في الكنيســـة المسيحية في الغرب.

وبعـــد ما غادر أمريكا إلى الهند ماراً بمدينة هونولولو. وأســـتراليا. وســـيلان. وكان يقول حيثما توجه: «إن عملى هو التبشير». وكل مَنْ سمعه لا يستطيع أن ينساه.

ووصـــل إلـــى الهند فـــي نهاية الربيـــع. وبعـــد أن قام بخدمـــات في مؤتمرات مســـيحية مختلفة. بدأ يســـتعد لرحلـــة الهمالايا والتبت. وقد كان يرحب بخشـــونة أهل

التبت البوذيين، ومخاطر الهيمالايا والثلوج هناك، بعد أن شاهد الجحود الروحى الذى تحمله من أهل الغرب.

والغريب في الأمر أنه اقتنع بالقيام بزيارة أخرى إلى الغرب في غضون عامين، وكان من بين الأسباب التى شجعته على ذلك هو الحصول على فرصة لزيارة فلسطين وهو في طريقه إلى إنجلترا. وقد كان يشتاق إلى ذلك منذ فترة طويلة، ولما حانت الفرصة لم يتردد ولم يعارض. وكان قلبه يخفق بشدة كلما كان يتخيل نفسه في رحلة عبر الأراضى المقدسة التى بدأت منها بشارة الإنجيل.

وفي هذه المرة لم يذهب إلى أمريكا، بل ذهب إلى كثير من البلاد الأوربية، وأخيراً ذهب إلى بريطانيا.

وقد قوبل بالاحترام في فرنسا، وسويسرا، والسويد، والدانمارك، وألمانيا، وهولندا. ولما وصل إلى إنجلترا كان التعب قد حل به، وكان حديثه في المؤتمرات هناك أكثر مما كان لعامة الشعب، وكان عن تعميق الحياة الروحية.

بيد أن الصادهو نفسه كان يشك إذا كان قد وصل إلى شىء من جراء زياراته تلك. لكن تأثيره على الكنيسة، وعلى الأفراد بصفة خاصة، كان ملحوظاً جداً، كما كان منظره الخاص يضيف قوة لكلماته.

والخادمة التى فتحت باب المنزل الأمامى، ثم اندفعت إلى الداخل، لتخبر سيدتها أن المسيح قد جاد لزيارتهم في المنزل، وأولئك الأطفال الذين لعبوا مع سندر، ثم طلبوا من «يسوع» أن يصحبهم إلى فراش نومهم.

لقد وُجد مثل هؤلاء، إنما يعبرون بالكلام عما كان يحس به كل مَنْ تقابل مع «الصادهو»، إذ كانت له سمات المسيح، متمثلة في وداعته، وقوة احتماله وصبره.

لم يحزنه شىء بقدر الانقسام والفرقة بين كنائس الغرب، وكان يقول: «كيف يتوقع المسيحيون أن يعيشوا معاً في السماء، بينما هم لا يستطيعون ذلك هنا على الأرض؟!».

وكان اشتياقه عظيماً إلى اليوم الذى تتحد فيه كل الكنائس.

ولما عاد إلى الهند في عام ١٩٢٢، ربما لم يكن يعلم أن بعضاً من أصدقائه المسيحيين في جنوب الهند كانوا قد بدأوا يرتبون وينظمون من أجل تلك الوحدة بين الكنائس. ولم يكن لها هذا المظهر واضحاً، إلا بعد مرور عشرين سنة بعد وفاة الصادهو. لكن مثاله، وكلماته، كانت العامل الأكبر في قيام مثل هذه الكنيسة الواحدة التى كان يحلم بها.

(١٥)

اللهب يخبو

(١٩٢٢ - ١٩٢٩)

عندما انقضى عام ١٩٢٢ لاحظ بعض أصدقاء سندر أنه كان حزيناً، لأنه كان يشتاق أن يموت في ذلك العام الذى بلغ فيه الثالثة والثلاثين من عمره، كما حدث مع سيده، الذى كان يتبع خطواته.

وإن لم يمت، لكنه عانى موت أبيه في العام التالى. وحدث في نفس الوقت تقريباً أن البنك في مدينة «سملا» قد أفلس، ولم يكن من السهل استعادة الأموال التى كانت مخصصة لرحلات التبت ثانية.

بيد أن فقد المال في حد ذاته لم يكن له شأن كبير بالنسبة لسندر، لكن ذلك كان يضيف إلى أتعابه، لا سيما بعد عودته من أوربا وقد ذهبت عنه نضارته إلى حد كبير.

ولما بدأ يشكو من عينيه، استشار أحد الأخصائيين، وسمع أخباراً خطيرة بأن إحدى عينيه قد أصبحت بلا فائدة، وقد تصبح الثانية مثلها. وأصبح مضطراً أن يلجأ إلى الراحة، إذ لم تكن له القوة الدافعة التى كانت له من قبل.

وبالرغم من الخسارة التى لحقت بالبنك، فقد تم إعداد المبلغ اللازم لرحلته إلى التبت في نفس ذلك العام. ولم يمض صيف واحد بدون رحلة طيلة خمسة عشر عاماً.

وقد حاول أن يبشر هناك في الشتاء، لكنه قضى في كوخ صغير سبعة عشر يوماً محاطاً بالثلج من كل جانب، ولذلك فضّل أن يقضى مثل ذلك الوقت ويستفيد به في مكان آخر.

وفي عام ١٩٢٣ تمم خطته، وفي العام التالى ساءت العلاقات بين التبت والعالم الخارجى، فمنعته السلطات من عبور الحدود، وقد واجهه الفشل لأول مرة.

كانت حيويته تنحسر، وقد حذره طبيبه ألا يقوم برحلة تبشيرية طويلة في الصحراء، كما وجد أن ما أصابه لم يكن قابلاً للشفاء. وكانت هذه الحالة من الإحباط غير محتملة بالنسبة لسندر، وكانت قراءاته قليلة، عدا كتابى الطبيعة والكتاب المقدس. ولم يكتب إلا القليل، لكن بعض كتاباته تم نشرها وتوزيعها. وعندما لاقت انتشاراً ملحوظاً وتأثيراً واسعاً فقد تشجع سندر للاستمرار في القراءة والكتابة، وهذا ما استطاع أن يقوم به بسهولة في وحدته. وكان يقضى معظم أوقاته إما في بيته الصغير، أو مع أصدقائه في مستشفى الجذام، وظل مستريحاً لمدة ثلاث سنوات متعاقبة.

وأصبح اسمه مشهوراً، بيد أن أحداً لم يكن يشاهده بعد، بل كانوا يقرأون كتبه أو النبذ التى كان يرسلها إلى العالم.

وكان كثيرون في الهند يظنون أنه فعل كما يفعل

الرجال الأتقياء عادة. إذ يختفون لوقت ما من أجل الراحة فقط. ثم يعودون. ولكن قليلين هم الذين علموا بمقدار المرض الذى حل به.

والحقيقة أن شعلته كانت تتناقص تدريجياً !..

وفي عام ١٩٢٧ قال سندر لأحد أصدقائه أنه ينبغى استئناف تبشيره داخل الحدود الممنوعة للتبت. لا سيما وأن الممرات بدأت تُفتح بعد ذوبان الجليد. وأن تجار التبت يستعدون للعودة. بعد قضائهم فصل الشتاء في سهول الهند وتلالها - وهى أكثر دفئاً. وقد تقابل سندر معهم وسمعهم يتحدثون عن مدن وقرى كان يعرفها. وعن معابد كان قد زارها. فتحرك قلبه في داخله شوقاً إليها.

وفي شهر أبريل استقل القطار. ثم بدأ رحلته صعوداً عبر الجبال. ولم يصعد سوى أربعين ميلاً. وهناك على

جانب الطريق وجد جسده ملقى في بركة من الدماء. إذ حدث له نزيف مفاجىء في المعدة. فحمله بعض الأصدقاء التجار في القطار إلى مدينته سملا.

وكل الذين شاهدوه بعد عودته هزوا رؤوسهم أسفاً. إنه لن يستطيع محاولة الصعود إلي التبت ثانية. لكنهم أخطأوا.

(١٦)
الرحلة الأخيرة
(١٩٢٩)

قال له أصدقاؤه: «يا صادهو. يجب ألا تخاطر ثانية. فربما لا تعود أبداً!». لكن سندر كرر إجابته السابقة: «إنى أتوقع باستمرار عدم العودة من التبت!».

وكان يؤكد لهم أنه رتب كل ما يختص بممتلكاته، في حالة عدم عودته، وأن معظمها ـ مع قلتها ـ كان لمساعدة الأطفال المسيحيين، والباقى من أجل استمرار العمل التبشيرى في التبت.

وذكر بعضهم أنه لم يقم بأى مجهود جسدى لعدة أشهر مضت وهذا لا يتفق مع صعود الجبل لارتفاع يبلغ ١٨٠٠٠ قدم. لكنه قال لهم: «أنا مستعد للرحلة التى

يجب أن أقوم بها». وحتى الوقت الذى بدأ فيه رحلته فعلاً كانوا يظنون أن إجابته كانت غريبة.

كان ذلك في أبريل عام ١٩٢٩. وقلما كان سندر يترك مدينة «ساباتهو» إلا لحضور بعض المؤتمرات. ومرة أخرى امتلأت الأنهار من المياه بعد ذوبان الثلج على الجبال عالياً. وبدأ التجار في عودتهم عبر الطريق الطويل إلى التبت.

وكان هذا الطريق يتميز بالصخور العظيمة على جانبيه، والتى قد تسقط في أى وقت. وكثيرون كانوا يلقون حتفهم بسبب انحدارهما المفاجىء في فصل الصيف بعد ذوبان الثلج، وقد يترك ذلك فجوة واسعة قد يصل عرضها إلى ٥٠٠ قدم.

وفي يوم ١٣ أبريل خرج الصادهو من بوابة مستشفى الجذام مصطحباً معه صديقاً هندياً كان يعمل في المستشفى، وقد صافحا رئيس المستشفى وودعاه واتجها إلى مدينة «كالكا»، وهى المدينة الصغيرة التى تلتقى

فيها السهول بالتلال ويبدأ منها الخط الحديدى الذى يوصل إلى مدينة أخرى - ريشيكش - حيث يبدأ منها طريق السواح إلى التبت.

أما الصادهو فلم يشاهده أحد بعد أن ترك مدينة «كالكا». مع أنه كان واضحاً بردائه الأصفر ونظارته القاتمة. ولم يلاحظ أى من السواح أو التجار كتاباً أو مكتوباً آخر كان عليه اسم الصادهو على طول الطريق. كما لم يصدر أى بيان من البوليس بأى حادث وقع على الطريق.

وحتى العائلات المسيحية التى كانت بالقرب من جبال الكايلاس وبالقرب من البحيرة المشهورة هناك لم تعلم عنه شيئاً.

وبعد نهاية شهر يونيو - وهو الميعاد الذى حدده لأصدقائه كموعد لرجوعه - بدأ القلق يساور الكثيرين بشأنه إذ كان الوقت متأخراً جداً للبحث عنه أو السؤال بخصوصه.

ولم يكن هناك أى أثر عن الصادهو. ولم يعد ثانية.

وكثيرون من أتباعه المسيحيين ظنوا أنه قد انضم إلى نساك جبال الكايلاس. بيد أنه لم يفكر قط في الوجود في تلك الوحدانية.

واعتقد آخرون أنه تمكن من دخول التبت واستشهد هناك. مثل ابن بلده «كارتر سنغ».

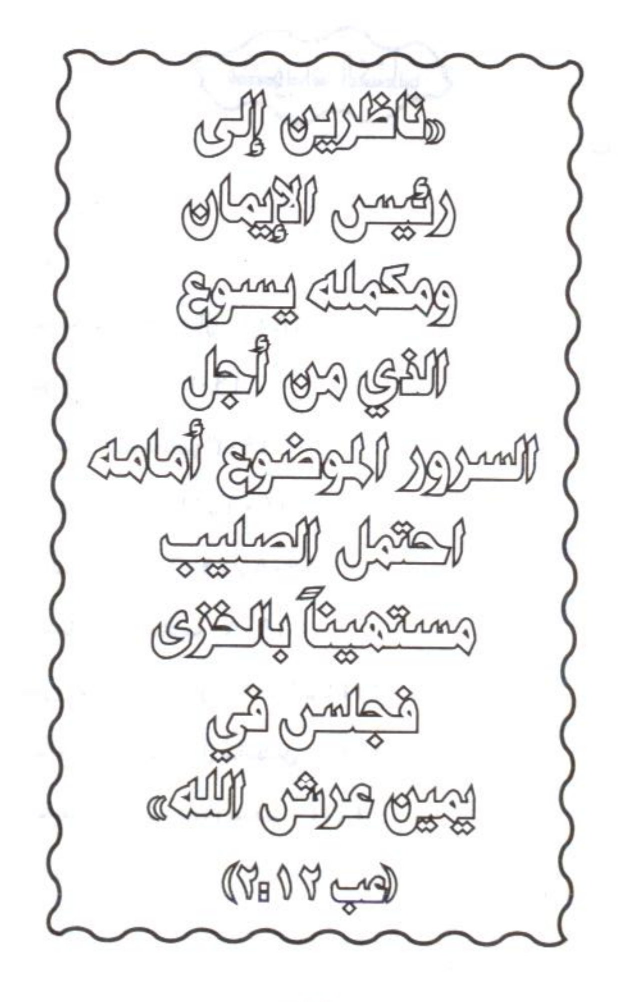
أما الذين عرفوه عن قرب ورأوا صحته المتدهورة وهبوطه الأخير وعينيه الضعيفتين فقد تذكروا استعداده التام للموت وترتيباته في حالة عدم عودته. وأدركوا أن ذلك الرجل ذا الرداء الأصفر والذى أحب الهند قد اختفى ولن يعود.

لقد كان موته إضافة جديدة إلى غرائب حياته التى قلما فهمها سوى قليلين. وقد أخطأ أولئك الذين توقعوا هبوطه من الجبال في يوم ما.

وإن كان لا يوجد ما يخلد ذكراه ـ لا سيما الجبال التى عبرها مراراً. وربما تصبح أسطورته في طى النسيان في ما بعد ـ إلا أنه صدق الذين عرفوه جيداً في قولهم عنه أنه لم يمت.

إن روحه تعيش في شمال الهند. حيث الوحدة. والمسئولية. وحب المغامرة من أجل الآخرين.

وإذا قام أحد بكتابة تاريخ تلك الكنيسة يوماً ما فسوف يجد آثار «الصادهو سندر سنغ» في الحياة المتغيرة. والقيادة. والخدمة لكثيرين من الرجال والنساء الذين كانوا يعتبرونه صوت الله لهم جميعاً.




محتويات الكتاب

الترقيم الدولى ٤ ـ ١٢٢ ـ ١٣٩ ـ ٩٧٧
رقم الايداع ٣٧٧٢ / ١٩٨٦